عيون المعاصرة



محمود المسعدي

حدّث أبو هريرة قال ...

تقديم
توفيق بكار

دار الجنوب

محمود المسعدي

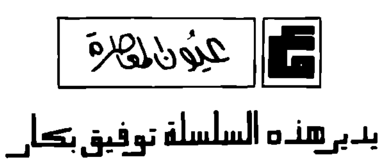


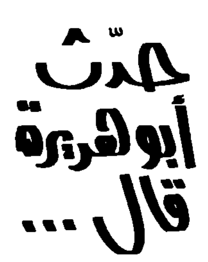
تقديم

توفيق بكار

الرسوم للفنان زبير التركي

دار الجنوب


عيون المعاصرة
يدير هذه السلسلة توفيق بكار


حدّث
أبو هريرة
قال ...

ISBN 9973-703-98-7

الإهداء

إلى أبي رحمه الله،

الذي رتّلت معه صباي على أنغام القرآن وترجيع الحديث، مما لم أكن أفهمه طفلاً ولكنني صُغتُ من إيقاعه منذ الصغر لحن حياة. وربّاني على أن الوجود الكريم مغامرة طهارة، جزاؤها طمأنينة النفس الراضية في عالم أسمى فأسمى. وفي أثناء ذلك كله علّمني بإيمانه سبيل إيماني.

م.م

مُقدّمة الكاتب

هذا كتاب كتبتُه منذ أحقاب، حين كنتُ أرومُ أن أفتحٍ لي مسلكاً إلى كياني الإنساني، وأقضيَ حجّاً إلى موطني المفقود : وفاءٌ حنينٌ إلى الذات الجوهر الفرد، وتوليدٌ للعشرة من معدن الوحشة، وإشهادٌ على أنّ تاج الكيان مركَّبٌ من العشق والفناء.

وقد طرحتُه منذ ذلك العهد طرحَ الحيّة جلدَها. ثمّ عُدتُ إليه بعد أن شاعتْ منّي في أبعاد العمر كلُّ مُهجة، فإذا هو يحدِّثُني بحديثه إذ ذاك، صدى منّي إليّ، ككلّ حيّ لا يزال : الحياة كونٌ واستحالةٌ ومأساة، فإذا هي ارتدّت

ظاهرةً وقراراً ورضى، فهي الخسرانُ ولعنةٌ على الزائفين.

ولئن أنا أخرجتُه اليوم إلى الناس، وأحييْتُه كما كان أحياني، فعلى أملِ أن يكون لدى غيري - إن استطاع - ما به تدرّبتُ على أن أكون.

وإنّ كلَّ كيانٍ لجَهدٌ وكسبٌ منحوت.

تونس - خريف 1972

م.م

Twitter: @ketab_n

تمهيد

إلى القارئ

الآن، وقد انتهيْتُ وطرحتُ بهذه الصحائف الضعيفة الناحلة إليك - أنظر فلا أرى غير العدم...

ستذهب هذه الصحائف فتمضي وتمَّحي. فهي أنفاسي قد ذهبتْ ولها ريحُ ما يبلى ويأكله الدُّود. كجميع الذين كتبوا من قبلُ، يظنّون أنَّهم خُلِّدوا وأماتوا الموت. وما خُلِّدوا. وإنّما هي آلام الإنسان يترامى صداها من قرنٍ إلى قرنٍ ومن جيلٍ إلى جيلٍ، كما يتردّد صدى الرعد بين الجبالٍ، فلا يكونُ للرعدِ حياة أو ترنّ الصخور. وليس لكلٍّ رعد صخورٌ تردِّده. فقد ينفلق بقاع صفصف فلا يصيب من الدوام إلاّ طرفةَ العين.

وإن هذا الكتاب لكالصوت أو كالصيحة في وادٍ به حاجةٌ إلى ما يردّد صداه ويُسري فيه خلجةَ الحياة. فقد كتبتُ أكثره في الليل جعلتُه دعائي للصباح، واستوفيْتُه ولمّا يتنفّس الفجر.

وليس لطالب أن يطلب فيه جديداً من المعاني طريفاً، لأنّه لا يكون عندي أطرف ممّا ينشأ في نفس القارئ عند مطالعته من الأفكار والمشاعر. فلتدخل إليه إذن أيّها القارئ بأمرك الباطن ولتنشره عليه، وإلاّ فلتُعرض عنه ولتدَعه إلى غبار المكاتب والنسيان. هو دعوةٌ إلى إحياء نارك. فإن لم يُحْيِها من رمادٍ، فقد مات وبطُل همُّك منه.

وإذا كان لا بدّ له من جدّة وطرافة لتُقبلَ عليه، فاعلَم أنّه ليس في نظري أطرفُ من جدّة القديم: كنفسك وأحلامك وأساك وحيرتك. ولعلّ أجدّ ما فيه بَعد قصّتك الباطنة، روحُ أبي هريرة، لأنّها تنتسب إلى أقدم الأقدمين وتودّ أن تنتسب إليك. ولعلّه ليس شأن الكاتب الجدّة والطرافة... وإنّما هو أن يفترق على يدِهِ الجوهرُ عن العَرَض العارض.

وقد يحتاج أبو هريرة عندك إلى التعريف ولسْتُ بمُعرِّفِه لك[1]. وإنّما لك من شأنه ما قد يقع بنفسك عند انتهائك من هذا الكتاب. ولتذكر بيت أبي العتاهية :

وأيُّ امرئ في غايةٍ ليس نفسُه
إلى غايةٍ أخرى سواها تَطَلَّع

1- في رواية أنّ أبا هريرة ثلاثة: أوّلهم الصحابي رضي الله عنه وثانيهم النحوي وثالثهم هذا.

وقولَ "هولدرلايـن" : "أتعلَمُ على مَ حزنك؟ إنّه ليس على شيء مفقودٍ فقدتَه من زمن معيّن يمكنك أن تقول متى كان عندك ومتى ذهب. إنما هو على شيء لا يزال حيّا قائماً فيك. هو عهدٌ أسمى من عهدك الحاضر تطلُبُه، هو عالَم أجمل من عالمك هذا..."

ولتذكر نُذْر "سفر التكوين" : "لا تأكلْ من الشجرة الحرام. فإنّك إن فعلتَ لذائق الموت".

وشأنَ "نيتشه" يقول : "إذا ذهب صدقي فقد عَمِيت. فإذا أردتُ المعرفة فقد أردتُ الصدق، أعني الشدّةَ والتضييقَ على نفسي والقساوةَ لا تلين".

* * *

إذا قرأتَ هذا الكتاب فله عليك - في مسيرتك إليك - أن تكون قاسياً غير رحيم.

أوجاع الإفاقة على التاريخ العاصف

"على أمل يكون لرنّات مغامرة أبي هريرة في نفسك صدى كريم".

إهداء الكاتب نسخة من قصته إلى صاحب التقديم

لا أظنّ قريحتنا الروائية خلقت أقوى ولا أبعث على الدهش من شخصية أبي هريرة. كائن شديد الغرابة يمتزج فيه الصوفي بالمغامر، يهيم باللانهاية كعشاق الحق قديماً وله وجدهم، جريء يحب المجازفة كهواة المخاطر من هذا العصر. قرر أن يضطلع بمصيره في كامل المسؤولية، أن يحيا صاحياً مفتوح العينين شديداً على ذاته وعلى غيره لا يموه شيئاً على نفسه ولا يساوم على ما يعتقده الحقيقة ولا يتسامح فيه مع أحد. فهو دائم الحيرة لا يني عن التطواح كأنما يقلقه في كل لحظة إلى حد الذعر أن يخطئ الوجود فيفوته. يعيش في دوامة السؤال لا يدع أمراً إلاّ استفهم عنه ولا تجربة إلاّ زجّ نفسه فيها يشكّ ويفحص ويختبر. متطرف في كل شيء في الأفكار والمواقف يهوى التناهي فإذا طرق سبيلاً مضى فيه لا يقف إلى أن يبلغ الغاية. تفتنه الحياة ويفجعه الموت على السواء إلى الجنون وهو مشدود إليهما كالمعذب تكاد عراه تنفصم من شدة التوتر. يحب أن يتحدّى وتغريه العظَمة، يريد أن يكون إنساناً،

أن يكون الإنسان ولا يخلو من عجب قد يصل إلى التعنجه. شخصية عتيدة وبلا مراء صورة مذهلة من قوّة الإبداع. ورغم أنّه طيف خيال ونحت كلام، خرافة كبيرة فهو يعيش بيننا كأنّه من الأحياء جزءاً من واقعنا. هكذا الأدب إذا كان خلاّقاً يصير قوّة تتحرّك في الوجود فاعلة. ولا تملك متى عرفته - في الأعماق لا على السطح - ألا تتفاعل معه. فهو يجذبك إليه ويستنطقك بلا هوادة عن معناك فيرغمك مهما كان اعتقادك على معاودة فهمك لوجودك والتثبّت في صحّة علائقك بنفسك وبالمجتمع وبالله وبالكون. ولا يهمّ بعد ذلك إن لم ترضك أجوبته -وله على الأسئلة أجوبة- فليس غرضه أن يفرض عليك رؤيته فيجعلك إليه بل أن يردّك إلى نفسك "فيحيي نارك". ومذ عرفته -شخصيا- وأنا معه في جدل صعب عميق لأنه يمسّ بجذور الأشياء. يسائلني من موقعه الفكري الخاص عن الحياة والموت والحب والدين والسياسة وأجاوبه أو العكس بالعكس من موقعي الفكري الخاص بلا محاباة على قدر صراحته صدقاً بصدق. وكلانا -ككل الناس- جالس على جانب ما من فوهة بركان واحد. فوجدتنا نلتقي في صميم مذهب الإنسانية نعظم معاً هذا "الذي حارت البرية فيه" وهو "حيوان مستحدث من جماد" ونحمله كامل المسؤولية ثم قد نفترق في ما وراء ذلك من المدلولات والأبعاد. هو روح جامحة إلى المطلق مفتونة بالأبد وبصر ضارب في أعماق "الغيوب" وآفاقي أنا التاريخ وهو أوساع لا تحد وأبعاد لا تدرك وليس وراء التاريخ إلاّ التاريخ، ويؤمن بأنه "جوهر فرد" إلى حد الوحشة المضنية حتى وهو بين الناس، وأعتقد أني "مفرد بصيغة الجمع" أو -وليسمح لي أدونيس بقلب عبارته- "جمع في صيغة مفرد" إلى حد الاكتظاظ بل الاختناق أحياناً، وحيث أرى ملحمة اجتماعية هائلة تغير كل شيء وتجدد معنى الحياة بلا نهاية يرى مأساة فردية مزعجة وقصة

معادة مذ كان الإنسان وتختم حتماً بالموت. وليس الذي بيننا مع ذلك حواراً باطلاً وإنما هو تبادل حقيقي ومثر. كم نسينا في مجتمعاتنا العربية أن الحوار لا يكون إلاّ بين اثنين (على الأقل) ومع التباين حتى وإن بلغ حد التناقض. فلا إنصات للآخر ولا اعتراف له بحقه في الاختلاف ولا بحريته في أن يكون هو لا غيره فكراً وعملاً بل قسر بالسجن أو التشريد والتعذيب أو القتل على الدخول في الصف والامتثال "للحقيقة" السلطانية. خسرنا كثيراً وما زلنا نخسر بهذا السلوك المتوحّش. فهّمني أبو هريرة رؤيته للوجود ولعلني أفهمه ما رؤيتي وكشف لي عن نواحٍ من الحياة كنت غافلاً عنها. بل أكثر من هذا أحرجني مراراً بأسئلة دقيقة لا تقوى عليها الردود الجاهزة ولا الشعارات الشائعة فاضطرني إلى التعمّق في مبادئي لاستنباط أجوبة جديرة من شأنها أن تقنعني قبل أن تقنع غيري. فليس من أقل مزاياه علي -بلا سخرية- أني به صرت أتقدم في فهم مذهبي وفهم الحياة.

وهذه قصته كما انفعلت بها نفسي من خلال هذا الحوار الطويل.

بدأ كل شيء ذات فجر بـ"بعث أول" انفتحت فيه نفس أبي هريرة على لذة الوجود وانتهى كل شيء ذات غروب بـ"بعث آخر" عبر معه أبو هريرة حدود الدنيا إلى "شواطئ الأزل". وبين هذا الفجر وذلك الغروب رحلة حياة امتدّت به من مطلع العمر إلى أن جاوز الأربعين و"آن الرشد" رحلة طويلة وراء نفسه ومغامرة تلو مغامرة اقتحم فيها الوجود من شتى الثنايا ليختبر أبعاد بشريته وتوجت -في جو من الخوارق- بتجلي "الحق" له في قمة جبل شاهق ففني فيه ولم تبق منه إلاّ آثار من الدم على الصخر وتشهد بمصيره الإنساني وأخبار منثوره يسردها الرواة.

كان في أول أمره يعيش بمقتضى العادة كسائر أهل "مكة" -ومكة هنا كناية عن المجتمع الإسلامي في عهد ركوده التاريخي- يتسلم الحياة من السلف كما هي ولا يتساءل عن مبرراتها، متديناً يؤدي الصلوات في أوقاتها، متزوجاً على السنّة، متخلّقاً بالقيم الموروثة فلا يرى في الجسم إلاّ قبحاً ينبغي أن يستره وباختصار كان مثال المسلم التقليدي إلى أن جاءه ذات يوم صديق له -كتمت هويته كأنه من دعاة بعض المذاهب السرية- فدلّه خفية على ما كان يجهل من أشكال الاحتفال بالحياة وإذا هو يفجأ في خلاء الصحراء ساعة صلاة الفجر بمشهد مدهش كأنه من عالم الحلم : على رأس كثيب في مستوى الأفق تتفجر شهوة الوجود أنغاماً ورقصاً موقعاً من جسدين عاريين، فتى وفتاة "في زي آدم وحواء" يقيمانها صلاة أخرى وثنية طاربة للشمس الإله وهي تطلع على الكون وترسل في الموجودات من فيض نورها وحرارتها روح الحياة "سلام على الروح يسري على يسر" ومن ورائها واحة "سرور" ضائعة بين الرمال مثل الجنة تجري من تحتها الأنهار. ومن جسم الفتاة وهو يتبرج في طلاقة عريه ويعانق بهجة الكون في جذل ذائباً في النور أو الهواء أو الرمال يتلقى أبو هريرة "دعوة الدنيا" رائعة وسط "هذه الأشجار وهذا الماء وهذا النور وهذا الفضاء وهذا الخلاء". فلا يتردّد إلاّ قليلاً ويستجيب فيترك مكة والزوجة والصلاة وقد "بعث" من بين "الأموات" إلى الفردوس، ليس فردوس السماء الذي ما فتئ يحلم به حتى كاد يغيب فيه كليا عن واقعه بل فردوس الأرض وقد مات عنه حتى أحياه بنفحة من طيبه. من جنة موعودة إلى جنة موجودة مدى "البعث" مجازيا، ومداه دلاليا انقلاب في التفكير من لاهوتية مغرقة ترتقي بكل الحياة إلى الآخرة -"لهم الدنيا ولنا الآخرة"- إلى إنسانية

معتدة تنزل بكل الحياة إلى الدنيا حتى تعمل لها "كأنها تعيش أبداً".
على أن "هبوط" أبي هريرة من التهويم في السماء إلى مباشرة الأرض -وسيحاول في حديث "الغيبة" عكسيا أن يعود إلى السماء- كان مثقلاً بشهوانية عارمة تحيل -خلفيا- إلى مذهب بعينه. فالفردوس الذي مثل لأبي هريرة بغتة كالذي يوعد به المتقون في الظاهر ولكن نعيمه مستمد من وحدة الوجود وإباحة أهل الفطرة ووثنية الأولين: خلاصة الفلسفة الطبيعية من أسطورة آدم وعصره الذهبي إلى "أندري جيد" و"أطعمته الأرضية" مروراً بمذهب "ديونيزوس" وتصوف ابن عربي وآراء "روسو".
فكأنما "عادت الروح" إلى أبي هريرة بعودته إلى "الطبيعة الأم" يتخذ معنى الحياة من زخر مائدتها. فهي التي بعثته من رميم الرجل القديم الذي كانه، فهبّ إنساناً جديداً يسعى بكل حواسه إلى ملاقاة الكون للعبّ من نبع الوجود ونكهته:

وافتح فؤادك للوجود وخلّه ... لليمّ للأمواج للديجور
حتى تعانقه الحياة ويرتوي ... من ثغرها المتأجج المسجور
"ظمئت إلى النور فوق الغصون! ... ظمئت إلى الظل تحت الشجر!"
"ظمئت إلى الكون! فأين الوجود ... وأنى أرى العالم المنتظر؟"
"هو الكون خلف سبات الجمود ... وفي أفق اليقظات الكبر"

صوت يجاوب صوتاً كالصدى يتردّد في أرجاء البيئة التونسية بين الحربين معبّراً عن تلهّف جيل كامل إلى الحضور من جديد في دنيا "غبنا" عنها طويلا وهو من مظاهر الإفاقة على التاريخ في تلك الفترة الانعراجية التي انشقت فيها بعد مخاض عميق القوى الاجتماعية الحديثة عن هياكل القديم نهائيا وانطلقت في حركة متعاظمة تبدل بأفكارها الجديدة وجه الحياة. "فالبعث" -آخر الأمر- صورة مجازية تترجم في

ذلك الوقت عن قفزة الطلائع المثقفة من الماضي إلى الحاضر ورمزها هنا أبو هريرة وقد كان -وهو سمي الصحابي المشهور- اسماً راسخاً في القدم ينوء بعبء التقاليد فصار عنوان المغامرة في العصر والسعي الجسور إلى إعادة بناء الحياة. هكذا تشف كثافة الرمز عن واقع المجتمع وتنغرس الكتابة رغم تباعدها في أرض التاريخ.

ويبدأ أبو هريرة رحلته وهو في عنوان الشباب بالغوص في أعماق الحس وقد تفتق فيه على "متع الدنيا": الطعام وطيبه والخمر وسكرتها ولذة الهوى و... نشوة السقم. فحتى "العلة" صارت -في ما عانى- من "محييات الحياة" وحال البلوغ إلى النصف الآخر من "متاع الدنيا". ويغرب أبو هريرة في تعاطيها ويتطرف همّه أن يذهب فيها إلى أبعد حد ولا يبالي إن شذّ عن الأخلاق المتعارفة بل هو يتعمّد تحدّيها بعنف إذ انقلب على التزمّت تمرّداً "نواسيا" يستحلّ ما تنهى عنه تقاليد "الحشمة" باسم "حقوق الطبيعة" وشرعية الرغائب رغائب جيل كان يشعر -حسب عبارة محمد العريبي في يومياته وهو معاصر للمسعدي- "بجوع كافر إلى الحب". فهذه القصة هي فيما أعرف أول نص أدبي يطرح بمثل هذه القوة وهذا العمق الفلسفي قضية الجسد في المجتمع العربي الحديث. وقد اجتمعت لأبي هريرة كل هذه المتع على اختلاف ألوانها لدى قينة تجنن الرجال بحسنها الغريب وشرود روحها ريحانة المرأة الزهرة ولكنها زهرة من لهب "كأن في عينيها ناراً وبفيها ماء حميما". شعلة منبعثة من سعير كبير لا ينطفئ موقده لأنه موقد الحياة ذاتها وهو الجنس والإلاهاه -في المنطوق الأسطوري للنص- "أساف ونائلة" شعار الحب العاصي. وورثت ريحانة سرهما عن قومها وكانوا من أشياعهما قبل أن يذهب بهم الحريق. وأول ما رأى أبو هريرة هذه

المرأة أدرك من هي فـ"عمّدها" خمراً ثم تحت شجرة واقعها بين قهقهات السكارى في ضمّة وحّدت بينهما جسداً وروحاً ودشّنت صحبة ساخنة دامت ثلاث سنين. أذاقته ريحانة أفانين اللذة وأدخلته في عبادة الصنمين وكانت تقام لهما في ضيعته ليلاً شعائر كشعائر المجوس على نار تتقد "ذكرا به لوعة الصادي" وحول الألسنة الحمراء الطالعة أشباح المريدين فتية وفتيات يرقصون كالشياطين أزواجاً وهم عراة على جنون الدفوف والمزاهر وريحانة "سادنة المعبد" تنشدهم من "كتاب" معبوديها:

أسـاف ونائلـة	أوقـدا جذواتـي
هـذه الدنيـا إنـاث	كلهـا تدعـو الذكـور
يسـمع منهـا لهـاث	بـدؤه بـدء الدهـور...

"تخميرة" وثنية أو "ربوخ" إباحي تعظيما للجذوة وإذكاء لها حتى تشتعل ناراً على نار. يتلاعب الكاتب بكل معاني النار من الجنس إلى الوثن إلى جهنم وإبليسها سلسلة واحدة من الدلالات. وكأن بشارا وهو من الشعراء الموحين إلى الكاتب يوسوس من خلف السطور هنا:

إبليـس خـير مـن أبيكـم آدم	فتبصـروا يـا معشـر الفجـار
النـار عنصـره وآدم طينـة	والطيـن لا يسـمو سـمو النـار

ويشارك أبو هريرة بهذا الحفل الجاهلي في إضرام أوار الجسد ليروض نفسه في نوع من "الجهاد" الصوفي على تملك زمامه وهو في أقصى التهابه لأنه صار لا يحب السير إلاّ "والهاوية"يطل على القاع ويظل صاحياً لا يأخذه الدوار يمنعه من الدهشة شيء ما. أجل ثمة قلق خفي بدأ يداخل لذته حتى في أشد حميتها وهو شعور لا يزال خافتاً

بدبيب الفناء في كيانه مع مرور الزمان فيحاول أن ينفيه من نفسه بالتحدي الساخر كما يبدو من علاقته الغريبة بمقبرة المدينة وتقع تحت شرفة بيته. فقد اتخذها له ولصاحبته مجلس أنس وفراش هوى. على أديمها يروق له أن يتعاطى حبيبته كأنه إذ يهصرها على "رفات تلك العباد" يقهر الموت فيطمئن ويبلغ قمته الوجود. كذا بسورات الهوى ظن أن قد تداوى من نخر الداء القاتل كما حسبت ريحانة أنها بسحر جمالها قد شدته من حواسه إليها في خلد جنتها -أو جحيمها- "تأكله ويأكلها وتفنيه ويفنيها" وكلاهما للآخر آفاق دنياه الواسعة. ولكن الشعور بالموت احتد ولم يعد أبو هريرة يرى في المرأة وإن كانت في فتنة ريحانة إلاّ فردوسا كاذباً ولا في الهوى على عنفوانه إلاّ سراب أبد. أورثته وليمة الجسد "جوعاً" في الروح يفغر فيه كهوة العدم التي يحس أنه يتدلى فوقها. ويشتد به السؤال: أي خير في "مائدة" تقدم للإنسان حتى إذا شرهت إليها نفسه انتزع منها عنوة إلى التلف؟ وهل ريحانة نفسها إلاّ "كالزهرة على القبر" جمال منغرس في تربة الفناء أو كالشمس لا يشرق نورها إلاّ لينطفئ ويغيب؟ أصبح الموت يسور نشوته ويشيع في الكائنات والأشياء حوله طعم البلى حتى تعفنت في فمه اللذة و"شاخ النور" في عينه بعد الذي وجد "من جدة العمر" ولما يتجاوز الثامنة والعشرين. ما أسرع ما شفعت "إرادة الحياة" بإحساس الموت حتى صرنا لا نعرف أيعيش أبو هريرة حياته في الموت أم موته في الحياة؟ كيف انقلبت الإفاقة على التاريخ كحركة تدفع إلى الوجود تفجعا من الزمان كسيل يجرف إلى العدم؟ ولِمَ ارتدّت الملحمة الاجتماعية في الواقع مأساة فرديّة في النص؟ بين القصة وسياقها توتر شديد ستكشف بقية المغامرات عن أسبابها. على أن وعي الموت لدى

أبي هريرة سيصبح من الآن أقوى وازع للحياة يلقي عليها ظلاله وفي الوقت نفسه يكسبها عظمة.

وإذ أيقن أبو هريرة أن سكرة الحواس أوهى من أن تنسيه فاجعته لم ير بدّا من استئناف الرحيل بحثا عن معنى آخر للحياة يراه أخلق بإنسانيته وأدحض للموت. فليس من شيمه كشخص مأسوي يرفض خداع نفسه -وعلى عكس المثل المعروف في كليلة ودمنة- أن يظل منشغلا بـ"العسل" و"التنين" في قعر "البئر" يتربص به فماً مفتوحاً لالتهامه. ويعمد إلى علائقه بحبيبته فيجتثها من العروق وهي لا تزال حية فيه ثابتة فيذهب عنها ويظل منها إلى آخر أيامه "أعجز الناس عن الحب". أمّا هي فلم تمّح ذكراه من ذهنها إلى أن شاخت فقد كان بصرها بالحياة حتى صار لها كل شيء بعده "وضاحا". المسعدي حريص في ما يبدو على أن يلعب بطله مع النساء خاصة دور المرآة تجلو لهن صورهن وصور الأشياء حولهن على حقيقتها. فقد "وضع" أبو هريرة ريحانة كما سيضع بعدها ظلمة. وما هذه إلاّ صورة معكوسة من تلك. فولدت كلتاهما للدنيا من جديد. بعثهما كما بعث وبقوة عينه التي "كأنها تنشئ مرئيها إنشاء" مهما يكن من خوارقه مع ريحانة فإنها لا تستطيع أن تخفي أن علاقته بها -بالمرأة فيها- لا تخرج في النهاية عن دائرة تصور ما رجالي شائع. طبعا ليست ريحانة من النساء اللائي دجنهن المجتمع المحافظ بشدة الكوابت كالزوجة المسكينة التي لم تظهر في القصة إلاّ لتأخذها الصاعقة. وكان أبو هريرة يحنو عليها برقة ولكنه يدعوها إلى "الجهاد" معه فتأبى وجلاً أو تقوى. ريحانة امرأة طليقة آبدة كما تهوى روحه المتمردة ويعشقها ما في ذلك شك ولكن هل هي بالنسبة إليه إلاّ أنثى شهية؟ فإنها لم تكن سوى وقفة لذيذة في

طريق "المسافر" ومستراح ينفض عنده البطل "عناء الجهاد"، جسد ممتع ولكنه مشدود إلى الأرض عاجز عن الارتقاء مثله إلى "القمم الشاهقة" كأن ليس لها من روح إلاّ روح الجسد. كذلك كانت ميمونة مع غيلان في "السد" و"المرأة العارية" مع "راعي النجوم" في قصة علي الدوعاجي المشهورة على ما يعرف في هذا الأخير من تفهم عميق للنساء. فالرجل دائما روح متطلعة إلى الغايات البعيدة وحركة لا تهدأ والمرأة دائماً كتلة من الحواس وقرار في المكان (الدار كما نقول) ورضى بالوجود الملموس الداني. وعلى فرض أن هذا التصور يعكس تفاوتاً حقيقيا بين وضعية كل من الرجل والمرأة في مجتمع ما بين الحربين أفهو من طبيعة الأشياء فيطلق حقائق أبدية: "أكلما تمرد شيطان في إنسان قامت له امرأة نبيا؟ أو كلما قامت في قلب أعاصير جعلتها النساء خطوطا مستقيمة؟" أو -ويقول هذا في ظلمة لا في ريحانة وكلتاهما في الحكم "امرأة"- "كذا المرأة لا تكون إلاّ واهنا مقطاع الجهد فإذا همت أو اشتدت بعض يوم إذا هي رماد" - وإذا الموؤودة سئلت..." ظلم قديم. وما عجبي إلاّ من أبي هريرة يرى البعيد بعينه الخارقة ويعشى عن القريب يريد أن يجرر المرأة وهو يكرس فكرة "نقصها الجبلي".

ويدخل أبو هريرة طور العزلة فيختلي عن الأنس في "واد لا يسكنه إلاّ الجن". مكان ملائم يتماسّ فيه عالم الواقع وعالم "الغيب" بحيث تشف بينهما "الحجب" وتنكشف "الأسرار" كما سيقع بعد حين. أبو هريرة دائم التطرف معنى ومكانا : فكما يؤثر السير على شفا الهاوية كذلك يؤثر السير على "تخوم" الدنيا يشرف منها على "ما وراء". فعينه -كما قالت ظلمة- "أشد ما رأيت شوقاً إلى ما تراه غيرها من العيون". وعينه مع صوته هما الشيآن الوحيدان اللذان يدوان

من معالم وجه المحتجب وكلاهما معقود بأعماق الروح من ناحية "كأن روحه البصر" وبأبعاد المجهول من ناحية أخرى "كأن صوته رجع غيب بعيد" هكذا أبو هريرة لا يعيش إلاّ في اللانهاية. وفي خلوة ذلك الوادي ينعم بذاته في توحدها سائحاً في أرض كالعروس تؤتيه من شهي ثمارها، سابحاً في ديمومة تبدو مطلقة من الزمان أشبه بآدم في جنته. وتعود صورة الجنة مرة أخرى وليست المرة الأخيرة كاشفة في باطن أبي هريرة عن حنين شديد إلى "الفردوس المفقود" إلى "البدء" وما يعتقد من براءته وسعادته وأبديته. شوق الروح إلى أصلها؟ أفلاطونية قديمة. الانطلاقة عود على بدء أم نحت للحياة على غير مثال سابق، من جديد واستنباطا من ممكنات التاريخ؟ كدت أرى أبا هريرة كقول جحجلول المعري "يمشي إلى[الوراء] زقفونة". على كل لا تدوم بأبي هريرة لذته بنفسه. فما من عادته أن يقتصر على حدود فرديته طويلا وإلاّ اختنق في جلده. ألم يكن منذ الصبى ينزع إلى الآخرين نزوعا مؤلما ويتوق إلى التلبس بهم حتى يحيوا فيه ويحيا فيهم؟ ولكن لماذا هذه الشهوة الافتراسية التي تداخل مشاعره نحو غيره حتى يهم بشق البطون وسرق الأرواح كأن الآخرين لا يعنونه من حيث هم بل من حيث هو وحاجته إلى الامتلاء. أبو هريرة يزعج أحيانا من فرط عنجهيته. ولا يلبث أن يفتقد بعده الجماعي "فيشتاق العدد" عدد الجماهير ويعود إليهم "مرسلا" إذ يناجيه "الغيب" في ذلك المكان المسكون بسرّ الطين كما ناجى موسى ربّه في طور سنا. وينزل عليه كالوحي يرده إلى الجماعة. فقد ناحت الريح ذات يوم -ترجمه عن القوى الخفية- بصوت كأنه نشيج الإنسان يتوجع إليه من الشقاء منذ القديم ثم هاجت فأزاحت الرمال وأرته رسما دارسا وجمجمة "يورك"، يتحسر: "أواه يورك

المسكين!" - وإذا هذه الأطلال والعظام البالية تصفعه "بقصته العجوز": طين مآله الدمار والتلاشي وما فتئ يعاني حتى يخترعها من جديد. وكأنما تتجمع في نفسه إذاك آلام الإنسان وثورته فيرفض "الحتم" ويبصق في وجه الموت مصرا على "بكر السبيل". ثم يرى في المنام رؤيا تؤكد فيه روح المقاومة. يرى صورة الإنسان تأله "وقال أنا ربكم الأعلى": فرعون "ذي الأوتاد" يشرف من أعلى صلافته الإنسانية - وهامان رأس السحرة إلى جانبه - على قومه وهم يغالبون الدهر بالطين والصخر ليشيدوا عظمة الإنسان وخلوده. فتلهمه الرؤيا معنى القدرة الإنسانية الخلاقة والفعل الذي "ينفي العدم" وأن "الطين" الذي جبل منه الإنسان كائنا ضعيفا عابرا لهو الذي يمكنه من بناء مجده ودوامه. يطل من وراء فرعون شخص "بروميتي" رمز العصيان الإنساني كما لاح من خلف أساف ونائلة طيفا "بخوس" إله الإباحة و"فنوس" ربة الحب. وشأن المسعدي في هذا النص وغيره من النصوص الأخرى أن يستبدل من وجوه الميثولوجيا الغربية وجوها أخرى في مثل قوتها مأخوذة من الأساطير العربية حفاظا على الأصالة الثقافية في مجال التخيل والترميز. وهذه من إبداعاته المحسوبة له. أيهما مالك السماوات والأرض: الإنسان أم الإله؟ "فرعون أم الله؟" سؤال خطير يطلب جوابه في مغامرة جديدة مغامرة الفعل.

وينبئ أبو هريرة في تجربته هذه بميلاد بطل "السد": غيلان "الإنسان الرجيم" الذي تمرد على الآلهة وأخذ ينازعها السلطة على الكون اعتدادا بقوته. وكلتا الشخصيتين تجسم في مستوى الإبداع الطاقات الجديدة التي فجرها التاريخ في صلب مجتمع ما بين الحربين وكانت تتطلع إلى السيطرة على المصير بمسؤولية تامة حتى جعلت

إرادتها فوق مشيئة الأقدار "فلا بد أن يستجيب القدر" كما قال الشابي. وتأكد هذا الإيمان بالإنسان في مصارعة المواقف الجبرية التي كانت توكل كل شيء إلى القضاء فصار "يمكن الخروج عن سلم قيم مركز على معنى الله إلى سلم قيم مركز على معنى الإنسان"[1].

ويخرج أبو هريرة من "ضيق محبس النفس" إلى "كثرة اليم" ليعمل مع الجماهير عساه يحقق فيها وبها الذات الإنسانية في أشمخ صورها. ويطلع على "أحياء العرب" بكلبه وعصاه في هيأة بين الرسول الهادي - وله جنة - والزعيم السياسي. وكان الناس من شدة المجاعة كالوحوش تتقاتل على جيفة وقد قوست ظهورهم كثرة السجود لرب السماوات يوكلون إليه الأمر في "إسلام" جبان وفرط الركوع لآلهة الأرض يستبدون عليهم ويسوسونهم بـ"حكمة" الرومان القديمة: "جزلة من رغيف ولعبة تلهيهم كالصبيان". فيستفز أبو هريرة فيهم العزة بالإنسان ويدعوهم باسم "مذهب غريب" إلى الارتفاع - مدى قامتهم البشرية - إلى السلام والإخاء والقوة والبناء أو يخطب فيهم كالمهيج الثوري: "هاته الأرض نحن خلقناها وهاته السماء نحن رفعنا عمادها فأقمناها فهل ملكتم من خيراتها شيئا؟... حجبوا الشمس وفيها لكم نور به تهتدون، وأمسكوا عنكم العيون وفيها لكم حياة، وذبحوا عنكم البقرة الصفراء. وقالوا ما يولد منكم اليوم غدا نأكل جهده ونمتص دمه وما حرثتم اليوم إلى أفواهنا من الساعة سنابله. وقالوا: نساؤكم لنا إماء وأرواحكم مرعى أيها الضعفاء..." يرن الكلام كأنه مقاطع قرآنية أهي آيات "كتاب" جديد؟ آيات: "سفر الفقر والثورة" كما قد يقول الشاعر

1- "مع الأستاذ محمود المسعدي كاتب الدولة للتربية القومية" - حديث مع أسرة مجلة التجديد - السنة الأولى العدد الثاني - مارس 1961.

عبد الوهاب البياتي؟ فيدخل الجائعين جنته ويشبعهم من خيراتها ويخرج بالمستذلين كتائب ثائرة على الطغاة توقدها "حمراء" ونفسه ثملة بطرة من الفعل ومنجزاته ولكن بعد سنتين من المعاناة يخيب سعيه مع الجماعة خيبة تلقي به في قاع اليأس من الناس ومن نفسه "وكان ذلك أول انحداره إلى نحبه" فقد وجد الجموع "أحقر من بعوض" نفوسهم "شر" في ضراوة الذئاب - كما قال عنهم "هبس" من قبل - "وَهَن" لا دواء له وهم إن استحقوا "الرحمة" فلا يجوز "الإيمان" بهم.

لا أرى أبا هريرة "الرسول" في خيبته مع الجماعة إلاّ صورة أخرى من "النبي المجهول":

أيها الشعب ليتني كنت حطابا	فأهوي على الجذوع بفأسي
ليت لي قوة الأعاصير إن ضجت	فأدعوك للحياة بنبسي
ليت لي قوة الأعاصير...لكن	أنت حي يقضي الحياة برمس

"لكن" ! كل المشكل في "لكن" هذه التي وقفت في النص كما وقفت في الواقع جدارا منع في وقت ما بعض كبار أدبائنا -وكانوا إذاك شبانا ثائرين- من تعميق علاقتهم بالشعب. لأن الشعب "روح غبية" كما يقول الشابي و"العدد" "شر ووهن" كما يقول المسعدي؟ لو قلبنا معنى "لكن" فجعلناها استدراكا على الأديبين لا على الشعب؟ ألا يجوز أن نتساءل على ضوء التطور التاريخي من الذي كان في الحقيقة "النبي المجهول" في ذلك العصر. هما أم الشعب؟ أما تحرك العمال تحركهم العتيد بين 1924 - 1926 ؟ فكيف يصرّ "نبيّ" الشابي سنة 1930 على اتهام الجموع بالحماقة؟ والمد الشعبي الكبير من 1932 إلى 1938 ؟ وانتفاضة 9 أفريل 1938 ؟ ألم يكن في كل هذا إلاّ الفساد والفسولة كما يقول "رسول" المسعدي؟ لو أردت أن أقسو على أبي هريرة لقلبت عليه

بعض كلامه وقلت له ساخرا إذ يتساءل في القفر أليما وحيدا بعد فشله: "أو هكذا يزني الدهر بالأمل البكر؟" : "لو كنت عشت في مستقبل الدهر لقرأت ما سيكتبه التاريخ من ملاحم "أحياء العرب" صارعوا استعمارا كان يبدو كـ"الحتم" - ولعله من حيث لا تشعر حقيقة "الموت" الذي كان يسد عليك الأفق - فكسر نظامه وفتح لـ"لأمل البكر" - ولك أبا هريرة - سبيل التحقق. فإن لم يتحقق الأمل كله بعد ذلك فالمسيرة لم تنته. إذن معنى هذا التضارب الشديد بين النصوص والواقع المساوق لها؟ فهو إن دل موضوعيا على شيء فإنما يدل على أن المسعدي -كالشابي- ما كان يعنيه تحليل التجربة التاريخية على حقيقتها بقدر ما كان يهمه أن يؤكد موقفا ذاتيا متأزما استوحاه من فلسفة ما. فلسفة "نتشه" -وكان من أئمته في التفكير- ولم يؤثر في الشابي إلاّ بطريقة غير مباشرة. وهي ترتاب في "الكثرة" ارتيابا شديدا ولا تؤمن بغير الأفذاذ إلاّ واحد ترى فيهم مصادر القوة في التاريخ والروح في الجموع: "دعوني أيتها الأجساد ليس لها روح غير ما سلبن من روحي!". هكذا الجماهير والنساء لدى أبي هريرة سواسية جثث خاوية وما الروح كل الروح إلاّ هو؟ عُجْب رومنسي! كالذي لعب برأس الشابي طويلا :

الويل للدنيا التي في شرعها فأس الطغام كريشة الرسام

ويحضرني - ردا على معنى هذا البيت - قول مأثور عن بعض شخصيات الكاتب المسرحي الألماني "برطلد برشت" ولولا تطرفه في المعنى المعاكس لهتفت به "الويل لشعب يملك أبطالا!". ومسّ عندنا رؤوسا أخرى في الأدب والسياسة فغلطها في حقيقة جدواهما تاريخيا

بقدر ما حجب عنها فاعلية الجموع. وبعد أليس إذا لم ير أبو هريرة -بعد "النبي المجهول"- من وجه الشعب إلاّ جانب الظلام قد نظر إليه بعين واحدة لأن الأخرى مأخوذة بنور "أناه" المتشامخ؟ على أن الشابي انتهى قبل موته إلى الإحساس بأن الشعب قوة من قوى الكون فكفر عن "النبي المجهول" بقصيدته الذائعة "إرادة الحياة" فالتأمت "ريشة الرسام" "بفأس الطغام" وأما المسعدي؟ فأمره محير. فهو يحكم على لسان أبي هريرة ببطلان "العدد" وفي الوقت نفسه يهدي قصته (في المخطوط)

إلى هذا الجيل من البطولة حياته !

إلى روح تونس الخالدة أرض المزج والنار !

تجاذب بين المبادئ وقوة الواقع؟ وهناك ما هو أغرب. فكرة المسعدي في الجماهير لم تتغير إلى اليوم لأنها عقيدة فلسفية وليست نتاج ظرف عابر. ولو شاء لأمكنه أن يقدم قصته بمثل ما قدم به مسرحيته "السد" "هذا الكتاب كتبته في عهد انفراد وتأمل وامتحنته بعد العشرة والعمل مع الناس سنوات فلم ألفه تنكر لي ولا أنكرت منه فأخرجته على علاته".

انظر إلى حديث "الجماعة والوحشة" وقد جعله الكتاب تتويجا للتجربة الاجتماعية فهو لا يقل تشاؤما من بني الإنسان عن سابقه حديث "العدد" وبينهما مسافة 34 سنة... شيء مدهش إذ هو الحديث الوحيد الذي أضافه الكاتب إلى النص الأصلي قبل طبع القصة كاملة. شيء مدهش! مع أن المسعدي كان بعد "عهد الانفراد والتأمل" قد التزم قضايا بلاده وخاض صراعات عصره مثقفا عنيدا قاوم الاستعمار على الجبهة الفكرية مع أسرة مجلة "المباحث" المشهورة ومسؤولا نقابيا كبيرا واكب جماهير العمال في نضالهم ووزيرا للتربية القومية غداة

الاستقلال أرسى سياسة التعليم على دعائم ديمقراطية وعصرية أفلا يعتبر كل هذا إلاّ مغامرة فردية لا ساس لها يعمل "الكثرة"؟ ألم يكن محمولا بقوة الحركة الجماعية؟ المسعدي يعرف الحجة عليه ولكنه حسب لغة العقود "يصر ويوقع" على مذهبه.

ويرتدّ أبو هريرة إلى نفسه وقد تقطعت وشائجه بالناس ليعيش - حتى وهو بينهم - في وحشة لا تطاق يعاني آلاما باطنة تذكيها فيه ذكرى الموت منذ الصبا: ذكرى أخته الصغيرة عذبتها الآفات ثم ذهبت بها باكرا و"حسبه الشيطان" "فقالوا هو الله". ويتسلل الخلل إلى منطق الحياة حتى صار أبو هريرة لا يرى فيها إلاّ "وجه حق باطل": عبثا ولا معنى يشتمل عليه من كل ناحية ويصليه بنار جحيمه فيبكي "من القضاء" أو يشرب ليدوخ. ثم يفر بمشاكله المستعصية إلى الدين ليلتمس فيه "الغيبة" ويرقى إلى "دير العذارى" وهو منفصل عن الأرض تقربا للسماء فيسأل رهبانه طريقة الفناء في ذات الله وكان "ممن ذهب إيمانه وحلت حيرته" فيعتكف صائما ويمعن على طريقة المتألهين من النصارى - في تعذيب جسده تمزيقا بالأظافر لعله يخلص منه ومن مقتضياته إلى الملكوت فينسى الأرض وطينها. ولكنه يطلب نفسه بعد كثرة الصلاة والتسبيح فيجدها "حاضرة" بكل أثقالها وإذا هو مع ظلمة "في الشيطان" يملآن المحراب فجورا - كأساف ونائلة - وقد أدرك "أن الآلهة لا تقام إذا هوت" وأنه ما تناسى المرء الجسد إلا "أكلته الخيالات". فكانت مغامرته مع ظلمة على عكس مغامرته مع ريحانة؛ فهذه أغرقته في الحس حتى اضطرمت فيه أشواق الروح وتلك أوغلت به في مراقي الروح حتى فار فيه الجسد. ويظل أبو هريرة معلقا بين الروح والجسد والسماء والأرض لا يجد في ذا ولا في ذاك كامل ذاته.

وتدخل أحواله بعد ذلك في تأزم شديد يدور في حلقة مفرغة من الأشكال ولا يجد منفذا يجري كالماء لا يقر له قرار من شدة الحيرة صامتا كالعيي "ضاع وعجز عنه الكلام" كالعلقة التي أصابت لسان الغزالي في "المنقذ من الضلال" "أعمى" ضاعت "قبلته" بعد "موت الجهات الست" فتجرد العالم من كل دلالة وتفيض روحه شيئا فشيئا عن حدود الدنيا وتنزع به إلى التجاوز فلم يبق له إلا أن يجرب "حكمة الجنون" على غرار أبي رغال. وما أشبه أبا رغال يسوس قومه بمنطق العبث إلى حد الظلم الأزرق بكليغولا جعل حصانه عضوا في مجلس الشيوخ يستشيره في مصالح الناس وقضايا البلاد. فهل معنى الحياة في أن لا معنى لها؟ وهل "العقل" في أن يواجه المرء بطلانها بالعته؟ ويجفل أبو هريرة من هذا المآل وقد أشرف على تخوم الخبال. ولكن المأساة تظل تطحنه حتى ليسير في الشوارع كالميت بين الأحياء يسأل المارين صفعة تقتله "فتحييه" وهكذا بعد "البعث الأول" الذي فتح بصيرته على الوجود "وقع على الدنيا فأفناها" دون أن يصيب امتلاء فهو الآن أشعر ما يكون بنقصان الكيان رغم كثرة المغامرات فما وجد "حقيقته" كاملة لا في الجسد ولا في الروح ولا في الوحدة ولا في الجماعة ولا في العقل ولا في الجنون يبدو كأنه اقتنع بأن الإنسان كائن أبتر محدود بحدود "منزلته" في الوجود ولا يكتمل إلا بتخطي "عالم النسبة" إلى ما لا نهاية المطلق وهذا ما انتهى إليه أبو هريرة بالفعل في خاتمة مسيرته عند غروب الشمس آخر يوم من أيامه استجمع فيه ذكريات ما فات من وقائعه في الدنيا: الولادة والموت وفتنة المرأة وحماقة الناس ثم "ضرب عنق الزمان" و"خرج من الظلمات إلى النور" في سعة المغيب التي إنما يخرج فيها سائر الناس -كأبي المدائن وهو صورته قبل البعث الأول-

من ضوء النهار إلى عتمة الليل. يناديه "الحق" في خلاء جبل أصخر شاهق أن يتسامى إلى "سحره" فيهمز أبو هريرة فرسه وينطلق ملبيا وما هي إلا أن تقرقع الصخور هاوية وتصهل الدابة من الألم ويصيح أبو هريرة فرحا حتى يخيم على المكان ظلام موحش. انتهى كل شيء على مقربة من أبي المدائن - رمز الرجل العادي - وهو مبهوت أمام هذا المشهد الهائل وكأنه يحضر "مأدبة شياطين". و"غاب" أبو هريرة في أوساع الكون.

خواتم المسعدي في كامل آثاره متشابهة. كلها تعتمد معنى واحدا: "الجواز" - في شكل غامض - إلى عالم آخر لا نعرف أين يقع فكما حملت الرياح غيلان بعد انهيار السد و"حَوَت طهارة الأعماق" السندباد بعد أن اختنقت نفسه "بنتونة" الوجود كذلك ابتلع الكون أبا هريرة. أما أن الكاتب يجلل "انتقال" أبطاله عن دنياهم بهالة من العظمة فهذا ما لاشك فيه ولكن القارئ يظل حائرا في معنى هذه "النهايات" لا يدري أهو عظمة الانكسار أم عظمة الظفر. وإنه ليبدو من التناقض ألا يحقق هؤلاء الأبطال إنسانيتهم تامة إلا بخروجهم عن بشريتهم. ومن ثمة تبدأ نصوص المسعدي - على اختلافها - ملاحم تشيد بقوة الإنسان وتنتهي مآسي تؤكد حدود تلك القوة فكأنما الإنسان عاجز مهما جهد عن تبديل وجه الحياة جذريا. وبعد فرأي المسعدي أن "الأدب مأساة أو لا يكون مأساة الإنسان يتردد بين الألوهية والحيوانية وتزف به في أودية الوجود عواصف آلام العجز والشعور بالعجز أمام نفسه" [1]

1- "أبو العتاهية" - مجلة مباحث، العدد 12 - 1944.

أفلا يكون شرف الإنسان إلا في المحاولة أبـدا؟ أخشـي أن يقـع الكاتب من حيث لا يحب في أسطورة سيزيف "مع فارق جوهـري هـو أني لا أضع "مأساة المغامرة الوجودية" في إطار "العبثيـة" بـل فـي إطـار "بطولة الإصرار على الجهاد ولو ضد المستحيل ولو مع تجـدد الانهـزام وتكرر الاندحار" يجيب المسعدي.

بلا جدال أبو هريرة صورة مثقف وعى ذاته وريـاح العصـر تدفـع المجتمع إلى التقدم والحرية فانطلق ينحت له بين الزهـو والجـذل مثـلا جديدة تشيد بجلال الإنسان وقدرته على صنـع مصيره. ثـم إذا السـعي الجسور يتبدد في متاه اللامعنى وتذوب في "آلام العجز" نشوة الخلق.

9 أفريـل 1938 : يـوم فـي التـاريخ تهشـمت علـى عنفـه الموجـة فانطفأ في الأشياء ضياؤها وتلطخت آفاق البلاد بالسواد وما لبثت آفـاق العالم بأسره أن تلوثت هي أيضا بدخان كثيف انبعث من حرائق الحرب وخرائبها. تشاؤم أبي هريـرة مـن قتامـة ذلـك المنـاخ وإذ ضـاق ظـرف الزمان عن الأشواق يئســت مـن الواقـع وأنقـذت خارجـه نحـو المطلـق والأبد. تلك قصة الإفاقة على التاريخ بين فرحة الاندفاع وأوجـاع الـردة من قبل أن يعود الموج إلى التدفق نحو الاستقلال. على أن هـذه القصـة وإن انبثقت دلالاتها من واقع عصرها في تجاوز مستمر لذاتها تصير مـع الأزمان ولا تكون. فهي ككل أدب حي منتهية متجددة : منغلقة - مـن حيث هي أجوبة نهائية - على رؤية صاحبها وإيمانه بأن المأساة حقيقـة الإنسان في الكـون ومـن حيـث هـي أسـئلة جذرية عـن معنـى الوجـود منفتحة على القراء اليوم وغدا تخض الضمائر حتى لا ترضى أبدا بالواقع المعطى وتحفزهـا أفـرادا ومجتمعـا إلـى تبديـل الحيـاة جيـلا بعـد جيـل وأفضل فأفضل.

والقصة، أخيرا، على السواء مغامرة وجودية جريئة وتجربة قصوى في الكتابة. فكما بعث المسعدي أبا هريرة اسما ومعنى من أعماق الماضي كذلك بعثه شكلا وأسلوبا في تناسق فني متين. فبينما خيّر كتابنا يكدون قرائحهم لتملك وسائل الرواية الغربية وقد يئسوا من موروثهم القصصي واقتنعوا بأن لا معاصرة إلا ما صور الغرب، رفض المسعدي أن ينقطع عن أصوله الثقافية ليغترب في صياغات الغير وأصرّ في عناد شديد - وكان الوحيد - ألا يتقدم في العصر إلا مستمرا مع ذاتيته الحضارية. ولا يؤسفه شيء كأن يرى الأدب العربي الحديث في جل مدارسه صورة هجينة من الآداب الأروبية فلا يزال يلح على واجب الترفع عن ذلّة الحاكي إلى عزّة المبتكر ويقينه أن التجذّر في التراث هو الكفيل وحده بتمكين العرب من مشاركة الأمم الأخرى في الإبداع، إبداع قيم الفكر وأشكال الفن. وكل ما كتب، وأبو هريرة بالخصوص، رهان كبير على ذلك. عاد إلى أعماق التراث فاستمد منه أعرق أشكال السرد عند العرب: الحديث أو الخبر لا ليقلده بروح سلفية عقيم بل ليعيد اختراعه بقوة الذهن الحديث. فخلافا لما وردت عليه الأحاديث في التصانيف القديمة من ساذج النظم وزعها المسعدي في قصته حسبما تقتضيه أحدث أساليب البناء القصصي. ففصلها على المواقف وحدات متقطعة تتداعى معنويا أكثر مما تتلاحم زمانيا لأنه كسر خط الزمان وتصرف فيه طردا وعكسا بما لا تنكره آخر تقنيات "الرواية الجديدة" (والقصة ألفت سنة 1939 ولم يتح لها أن تنشر كاملة إلا سنة 1973). وركب تلك الوحدات عروضيا بين طوال وقصار كالأسباب والأوتاد في التفعيلة الخليلية. يمتد النفس السردي في المغامرات الكبرى ويتقارب متسارعا كاللهاث في أشد فترات الحيرة والتأزم. فكأن القصة كلها بيت

من الشعر يوقعه بحر منبسط من روح العصر. وتفنن المسعدي في إيراد حوادث القصة بتعديد رواتها. فاتخذ من الأسانيد التقليدية زوايا ينظر منها إلى حياة البطل من بعيد أو قريب والخارج والداخل ومن قبل أو من بعد. وتتضارب الأقوال أحيانا في الحدث الواحد كما في "حديث الطين" فتختلف إذاك على أبي هريرة الأضواء وتتقاطع حتى تغمض الرؤية عمدا. وتلاعب الكاتب بأوقات الرواية كما تلاعب بأوقات الأحداث لمزيد التنويع في البناء. خذ لك مثلين: "حديث الوضع" و"حديث الوضع أيضا" وهما في موضوع واحد علاقة أبي هريرة بريحانة، ويتلاحقان في ترتيب الكاتب مباشرة، فبينما الأول حدثت به ريحانة بعد وفاق صاحبها كما يشهد بذلك ترحمها عليه في آخر الكلام سرد الثاني أبو هريرة "في آخر عهده بالدنيا". فالقصة تجري من أولها إلى آخرها على زمنين: زمن الوقائع وزمن روايتها والمدة بينهما تتفاوت من خبر إلى آخر كما في المثلين المذكورين: زمن الحدث فيهما واحد وزمن الحديث اثنان قبل موت أبي هريرة وبعدها. ويتضاعف زمن الرواية بتضاعف المحدثين في السند: "روي عن أبي سعد، قال: حدثت ريحانة قالت: ..." وبديهي أن تكاثر الأزمنة يكثف القصصية في الخبر لأن كل راو -وهذا أعجب ما في وظيفة السند- حكاية مسكوت عنها في النص. فـ"حدث أبو المدائن قال: ..." قصة مضمرة تترك لك حرية تخيل تفاصيلها وهي قصة ظروف رواية الخبر وتشتمل عليه كإطار له. كل متن في الخبر يندرج في إسناده كقصة داخل قصة ودائرة في دائرة أوسع. هذا إذا كان اثنين: "حدث مكين بن قيمة السعدي قال: حدثني هشام بن أبي صفرة الهذلي: ..." تشعب تركيب الخبر فصار قصة داخل قصة ودائرة في دائرة أوسع في دائرة

أوسع (تمثل الأمر سينمائيا تدرك حقيقته). ولا تنقفل آخر دائرة في النص إلا انفتحت أخرى خارجه لأن سلاسل الرواة تفضي إلى الكاتب ومنه إلينا فيصبح القارئ بدوره من المحدثين... وحلقة في إسناد القصة. وما أنا الآن إلا من رواتها وهذا التقديم قصة أخرى عنها. أبو هريرة -شكلا- قصص مضاعف: قصة تتولد عنها قصص تذيعها ولا تنتهي إلا أن تموت هي. وكل الرواة داخل الكتاب وخارجه كصوت الذاكرة الجماعية يردد على الأجيال أسطورة رمز كبير. هذا ما فعله المسعدي بالشكل وفعل مثله بالأسلوب. تلقى عن كبار الناثرين القدامى لغتهم الأثيلة فعدل بها عن موضعها وولدها كلاما آخر. فهي تتحرك في النص مشحونة بمادة الفكر الحديث ومثقلة في الوقت نفسه بتالد معانيها، قديمة جديدة. وقد وقف منها الكاتب موقف الشاعر فخاطبنا بها على أسلوب الاستعارة. بث فيها من خياله الغريب مجازات يلتقي فيها الحسي بالذهني فجأة على بعد المسافة بين السجلات: "والوهج يأكله (أبا هريرة) أكل الحسناء للعفة" - "وكان كلما انتشر في خواطره سجا كالبحر وشاع كالدهر وامتد" - "فكأن حديثه رجع غيب بعيد" وعشرات أخر وليست من "المحسنات" بل هي موظفة في كنه المدلول تختزله في صور قوية. فإن وجد أبو هريرة، للرمل "كمسّ لطيف النهود" فلأن الرمل سبيله إلى جسم الفتى العاري ويصبح جسم الفتاة بدوره "رقيق الرمل يجري بين الأصابع". المرأة أرض والأرض امرأة "وتصورت لي بكر من الأرض تدعوني" دلالة على اندماج الإنسان في الطبيعة والطبيعة في الإنسان ويذوبان معا في وحدة الوجود وحدة شهوانية تقطر لذة جنسية كعناق العاشق والمعشوق. وكتابات المسعدي مبطنة برغبة جنسية محمومة وليست مفاتيحها في يدي. وفضلا عن الخيالات فعبارة

المؤلف كلها إشارات لا تكلمنا بالمعنى بل بمعاني المعنى إذ هو "ملتزم للرمز اجتهادا" كما يقول وحريص على أن يجعل الجملة إلى "الشمس" كيف تنصرف إلى مشتقات شتى: فجر البداية وغروب النهاية ووضح التجلي أو روح الكون ومعبود الفراعنة راع أو إله عبد الشمس في الوثنية الجاهلية: سلاسل من الدلالات تذهب في كل وجهة ولا تنتهي. لغة المسعدي لغة "جمع" لا تقول شيئا إلا أوحت بأشياء فوراء الصمت الظاهر كالضجة تداخله فتكثف الإبلاغ. وبلاغة أسلوبه في تصريف الأسماء، وأسماء العناصر الأربعة بالخصوص، شبكات من الرموز متداخلة كالشرايين تتفاعل خلالها المعاني فتتناسل وتتكاثر بلا حد.

أبو هريرة من أقوى نصوص أدبنا المعاصر، كتابة متجذرة في صميم التراث تختبر في جرأة عجيبة طاقة أشكاله وأساليبه على أداء روح العصر، نموذج من الإنشاء الفني المبتكر ورهان كبير على الثقافة العربية وقدرتها على الخلق الأصيل.

توفيق بكار

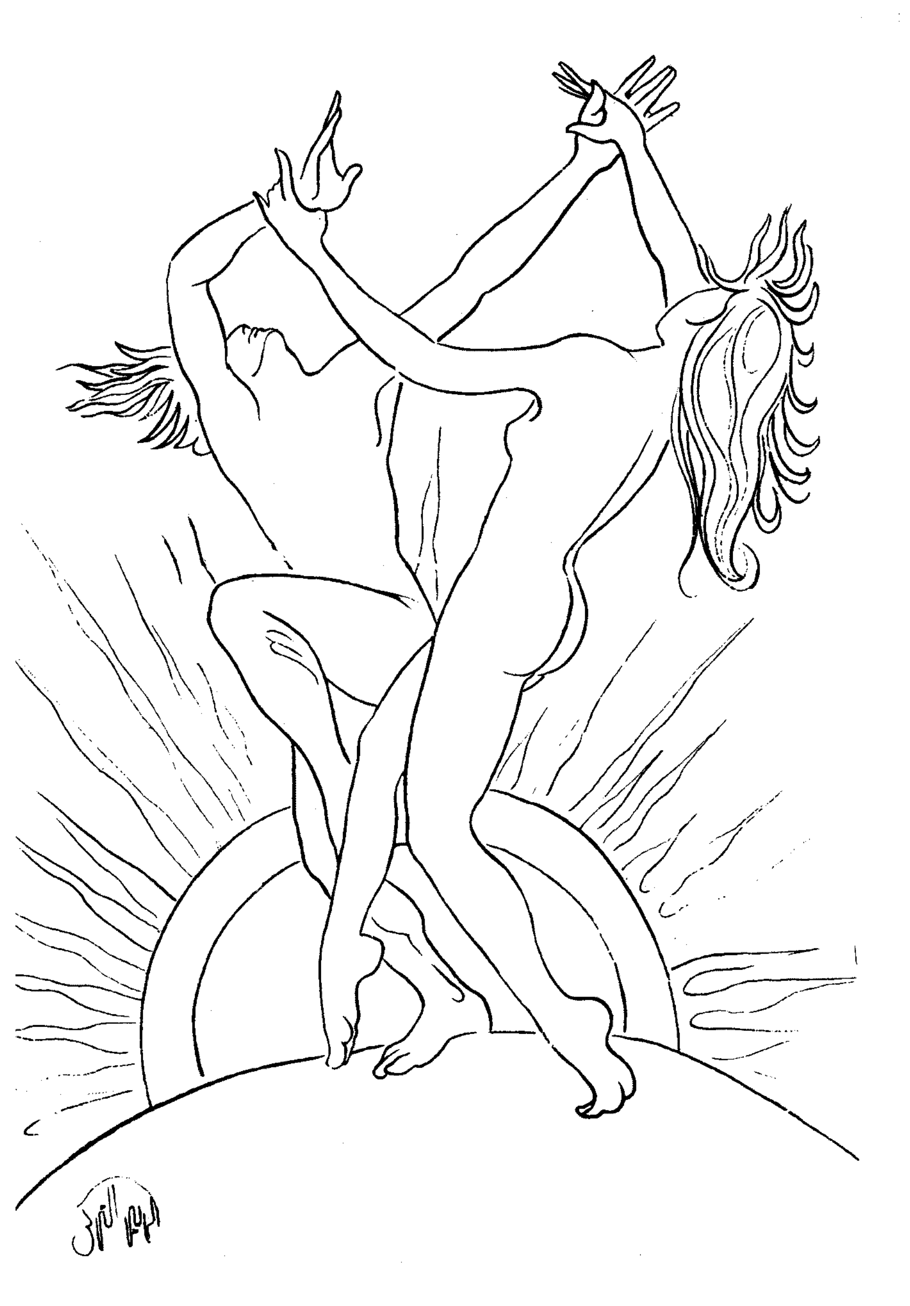
ديسمبر 1978

الفاتحة

طلبتُ المُسْتقرَّ بكل أرضٍ   فلمْ أَرَ لي بارضٍ مُستقَـــرَّا

(ابو العتاهية)

حديث البعث الأوّل



"سنعلم يوم نُبعَث من بين الأموات..."

(إبسان)

حدث أبو هريرة قال:

جاءني صديق لي يوماً فقال : أُحبّ أن أصرفك عن الدنيا عامَّةَ يوم من أيامك، فهل لك في ذلك ؟ فقلت : إن وجوه الانصراف عن الدنيا كثيرة، وأحب أن تُعرِّفني أيّها اخترت لي. فقال : أخفّها وقعا على النفس وألذّها مساغا. قلت : إني أخاف أن يكون انصرافا ليس بعده عَوْد، ولستُ متهيئا للرحيل. أفلا سبيل إلى الإفصاح ؟ قال : لا. وضرب بكفّه على كتفي. قلت : إذن يكون ذلك متى ؟ قال : غداً.

فلما كان من الغد سبق الفجرَ إليَّ. وكنت لا أعهده مبكاراً. فاستغربته في تلك الساعة وقلت : هممْتُ أن أُقسم أنك لم تبكّر كيومك قط. ما الذي عجّل بك ؟ قال : ننصرف لساعتنا. قلت : مهلا يا عافاك الله. فإني

لم أتوضأ وقد تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود. نتوضّأ فنصلّي ثم نصرف. فقال : لو فعلنا لفاتنا خير كثير. دعِ الصلاةَ اليوم فالله غافرها لك، ولنذهبْ فليس منه بدّ. فلم أجد إلا القيام معه. فقمت وأنا أستغفر الله وأصلح من ثيابي. فذهب بي إلى بيته، وكانت بفِنائه نجيبتان مُرحَّلتان، فقال : اركب هاته. ففعلت وركب الأخرى.

* *

ثم خرجنا من مكة وانصرفنا عن طريق القوافل، وسرنا سيراً حثيثاً حتى أصبْنا الرمال وجعلت النجيبتان تغرسان وتقلعان فإذا خطاهما ليّنة عذبة كأنها مسٌّ خفيف، ونحن نُصوِّب ونُصعِّد من كثيب إلى كثيب. وكنا في غوْر إذ قال : الآن نترجَّل. فقلت : والله ذاك ما كنت أريد، فقد أخذ مني الرملُ ولونُه ولطفُه. ثم ترجّلنا وأنخْنا راحلتينا وعقلناهما وجلسنا على الرمل. فجعلت أضرب برجلي وأقلّب يدي فيه فأجد منه كمس لطيف النهود، وكانت قد نامت فيه برودةُ الليل فهو كاليقين بعد الحيرة. وصاحبي مستلقٍ مُصيخٌ كأنه يتوقّع سمعاً.

ومضت ساعة. ثم إذا هو يُومئ بيده أنِ اصْعَدْ في الكثيب. فصعدت فرأيت على رأس الكثيب المقابل من

وجه الشرق شَبحيْن. وكانا عاليا فكأنهما على صفحة السماء المبْيضَّة. وقال لي صديقي : انظر ولا تتكلم. وتبيّنتُ الشبحيْن فتبيّن لي فتاةٌ وفتى، في زيّ آدم وحواء، ممدودان جنباً إلى جنب متجهان إلى مطلع الشمس، وكانت على وشك البزوغ فالمشرق كلهيب النار. ثم بدت من الشمس بوادر نور. فإذا الفتاة ارتمت وقامت كأنها الظبية أحسّت بالنبل. وجعلتْ تَهُمّ بالشرق فلا تخطو إلا خطوةً، ثم تتراجع وترسل يديها إلى السماء والشمس، كأنها تروم أن تدركهما، ثم تتراجع بهما في هيئةٍ من الرقص كأنها الغصن يهزّه النسيم. وسكَنَتْ طرفةَ عين. ثم عادت في الرقص إلى مثل حركتها الأولى. فرأيتها لساناً من الرمل قائمةً على رأس الكثيب، وكأنها وُلِدتْ منه أو ذابت فيه. فهي رقيق الرمل يجري بين الأصابع. وأرسلتْ إلى ذلك صوتَها بالغناء. فكان يترقرق في حلقها، ويرق لرنين يديها وثدييها وكامل جسدها، ثم يتراجع بتراجعه حتى إخالُه سكَن. ثم تعود فترقص وتغني :

سلامٌ على الرُّوح يَسْري على يُسْرِ
سلامٌ على النُّور سلامٌ على الفَجْرِ

حتى كأنّ صوتها ورقصتَها في الاندفاع والتراجع ابتسامةُ السرور أَوَّلَ نشأته. ثم سكنت ويداها إلى الشمس البازغة وإحدى رجليها مرسلة كالرمح المصوَّب في الهواء، كأنها تهمّ أن تطير، فكأني بها قد انفصلت عن الأرض وطارت. ثم انفجر صوتُ مزمارٍ في قوة وروعة. وارتمَت الجاريةُ ترقص في سرعة وشدّة. وإذا المُزمِّرُ الفتى، وقد قام فبدا على وجه السماء المشتعل كالصنم الحيّ. وجعلت الفتاةُ تدور أو تقف، وتقوم أو تهبط، فتقع في هيئة الساجد فإذا هي قائمة، أو ترفع فإذا هي ساجدة. فكأنها دخانٌ كاذبٌ أو سرابٌ خلّبٌ أو خفّةٌ ولا جسد. ثم انقضتْ من صوت المزمار قوّتُه. فارتدّ رقيقا حتى كأنه وحيٌ من الله أو همسُ الشياطين. وسكَنتْ عن الجارية سرعةُ الرقص، فصارتْ تتثنّى بتثنّي الصوت وتتهادى لتهاديه وتبطئ الدوْرَ لبطئه، حتى رأيْتُها أصبحتْ ذوباً في الهواء أو سَكَنَها نفَسٌ من النسيم فهي في لينه.

ودام ذلك ساعةً، فرِحْتُ له أريحيَّةً عذبة، وصرفني عن صديقي وهزَّني الطربُ. حتى كدْتُ آخذ في الرقص من حيث لا أشعر. ثم دقَّ الصوتُ حتى سكن. وإذا الفتى قد وثب إلى الجارية ورفعها من خصرها فبدَت

على يديه ممتدَّةً في الهواء ويداها مقرونتان في هيئة المقبل على البحر أن يغوصَ فيه، فتعانقا وصوّبا في الكثيب يرقصان معاً، حتى حجبهما عنا.

* *

ثم التفتُّ إلى صديقي فإذا هو يبكي أحرَّ بكاء. فقلت : والله إنّك لغريب الأطوار، أتبكي وما في الأمر غير الفرح ؟ فقال : أتعلم يا أبا هريرة ما قصّتهما ؟ قلت : لا والله وإن بي لشغفا إلى ذلك. فقال :

ضلت لي مرّة نجيبةٌ كانت أحبَّ إبلي وأحسنها عندي. وافتقدتها فذهبت أقصُّ أثرها، وكانت الساعة الضحى، فإذا هي قد قطعتْ مسافاتٍ حتى وقعتْ على ماء هو وراء هاته الكثبان. فأتيْتُه فرأيت تيناً وعنباً وخيراً كثيراً. وجُلْتُ فيه فلم أجد به حيّا. وذهبتُ أتبيّن أثر الناقة حتى وصلتُ عريشاً من سعف النخل، يجري بقربه ماء وفي الماء تين وعنب. ثم إذا أثر إنسان أو اثنين. فبينما أنا أستغرب ذلك وأفكر في من يكون على هذا الماء وليس له بيت، إذ سمعت غناءً. فصرفتُ وجهي إليه، فعنَّا ليَ منحدريْن من كثيب، وهما يرقصان ويلعبان ويغنّيان. فلمّا قربا منّي وجدتُهما عاريَيْن، وكدتُ أراهما من الشياطين.

ثم سبقت الجارية صاحبَها إلـيّ. فـأقبلتْ عليَّ فـي خفـة الهواء، فأخذتْ بيدي فأنزلتْني عن راحلتي وهي لا تنفـكُّ تغنّي. وكانت والله مـن حسـن الصـورة وإشـراق البشـرة فيما لم أرَ مثلَه قط. ثم أرادتني وقالت : كُنْ زهرةً وغـنِّ. فلم أتمالك والله عن الضحك وقلت : ما لك ؟ أجُننتِ ؟ دعيني. وتراجعْتُ تخلُّصاً منها. فتركتْني، وطفقتْ ترقـص وتغني ويغني الفتى وأنا أنظر، حتى دخلني من ذلك طرب شديد. وأدركت أنه سلامٌ وترحيب، فاستأنست وقلـت : والله لا أنصرف أو أعرف قصّتَهمـا. وذهـب عنـي أمـرُ الناقة. فبقيت حتى سكنا.

ثم جلسا وأجلساني، وجعـلا لحْمـاً مشـوياً وتمـراً وعنباً وتيناً بين يديّ. وقالا : كُلْ هنيا فهي سـرورٌ كلهـا. ثم تحدثنا، فإذا هي على أدب كثـير، يرويـان مـن الشـعر ويقولانه ويقصان مـن أيامنـا ويصنعـان علـى البديهـة مـن الأصـوات مـا لـم أسـمع والله أمتعَ منـه. فسـألتهما فـي انقطاعهما عن الناس، فقالت الجاريـة : دُعِـي النـاسُ فلـم يأتـوا ودُعِـينا فَجئْنـا. فـأقبلتُ علـى الفتـى كالمستفسـر. فقـال : نعـم. دعـوة الدنيـا، دعـوة الكـون. تـرى هـذه الأشجـار وهـذا المـاء وهـذا النـور وهـذا الفضـاء وهـذا الخلاء ؟

ثم قاما عني. ولم يسكُنْ بهما الرقصُ ولا الغناءُ ولا الجذَلُ وأنا أتمتّع بالنظر إليهما، حتى مضتْ لنا في ذلك ساعة. ثم ذكرتُ شأني، فانصرفْتُ وصوتاهما يشيّعاني بما لن أنساه أبداً من بديع الغناء. وقد أكلا ناقتي وآكلاني منها فما كان فقدانٌ أطيبَ من فقدانها.

وقد ذكرتُهما بعد ذلك كثيرا، وعدتُ لاستماعهما والنظر إليهما خلسة أياما، حتى نشأ لي منه في النفس كالشوق إلى الجنّة وكرهت حياتي بين الأموات.

وسكت صديقي، فإذا هو قد عاد إليه البكاء وكان سكن عنه. ثم قمنا وعدنا إلى مكة.

وبقيت عامّة يومي مصروف البال إلى أمر الجارية وفتاها وشأن صديقي فيهما. فلما كان من الغد جمعتُ عزمي وأعرضْتُ عن الدعوة وعدتُ إلى الصلاة فقضيْتُها واستغفرتُ الله. وكان آخر عهدي بصديقي. فقد سألت عنه بعد أيام فإذا هو قد أخذ جاريةً جميلة وترك أهله وذهب إلى حيث لا يعلم أحد...

فذهب ذلك بما تصنّعْتُ من العزم، وكان البعث.

حديث المزح والجدّ

حدث رجل من الأنمار قال :

كانت ريحانةُ من سبايانا. سباها في بعض غزواتنا بالحيرة رجل منا يقال له لبيد، وهي لا تزال صغيرةً مُرْسَلَةَ الشعر. فنشأتْ فينا. وكانت حسناءَ غريبةَ الحُسْن، كأنّ في عينيْها ناراً وبفيها ماءً حميما. فأرادها لبيد في يوم من أيام الرْبيع، وقد تبرّجتْ كُعوباً، فدلّتْ ولاعبتْه ثم امتنعتْ وقالت : ظمأٌ على ماءٍ مرقوب خيرٌ من ارتواء. ولم تزل به حتى كاد يُجَنّ. ثمّ أقبلتْ على شبان الحي، وكنتُ منهم، غفر الله لنا جميعا. فكانت تعاشر الواحدَ منّا، ثم تهجره إلى غيره. وكانت في ذلك تُلْقي لنا فنبسط الأيدي، فتُمسك عنا وتُولّي. حتى تهيَّجْنا كغبار في يوم إعصار. وهو في هيامه بها لا يرى من ذلك شيئاً. وأنكرتْ نساءُ الحي فعلَها. فجئْن لبيدا، وهو يومئذ لا يزال على عقله، فقلن له : إنا خشينا أن يكون من ريحانةَ فتنةٌ. أفلا تمسكها عن فتياننا ورجالنا ؟ فغضب لبيد فقام يريدها بعصاه. فقالت ودلَّت وأخذته من يده : لو أعتقتني لكنت لك. ولكنك مولاي، فليس لك من نفسي. فظنّها

لانتْ ومالتْ. فأعتقها. فأمستْ ولم تصبــحْ. فجُــنَّ لبيــد. فهو إلى اليوم في أهله بوادي حرّان، يخرج كلّ يــوم إلــى سَمُرَةٍ هناك، فيجلس ويقول في ريحانة مــن الشــعر مــا لا يُفْهم ولا يُحْفَظ. ثم يضرب على الأرض بعصاه ثلاثــاً ثــم يأخذ غصناً من السمرة فيجعله في فمه، ثم يقــوم فيســعى بين السمرة وبيته سعي الحجيج بين الصفا والمروة، حتــى ينفضخ كالدلو ويسقط لوجهــه. ويحتملـه أهلـه إلـى بيتـه فينام.



وكانت ريحانةُ تحدثنا فتقــول : أنـا آخـرة قومــي. وقد أكلتهم النار جميعاً. كانوا من وُلْد البراء بن كيســان. وسكنوا العمان ثم خرجوا عنهــا بعـد أن أصـابت بيوتهـم نار ذهبتْ بـأكثرهم. فجـاء مَنْ بقــي الحيرةَ ونزلـوا بهـا فأقـاموا. - فـإنهم بهـا إذ غزونـا قِبَلَهـم - فأوقدنــا نــارا فأصابتْهم فماتوا بها جميعــا. وأدْرَكَهـا لبيـد فوقاهـا النـار وملكها. وكــانت تحـدث أنـه كـان لقومهـا عـن أسـاف ونائلـة غـيرُ الخــبر المعـروف لا يُشـركون فيــه أحــداً. وتـقول : لم يبق اليوم من يعرفه غيري. فهــو هنـا مكنـون إلى يوم أموت. وتجعل يدها على صدرها فكأني بنهْديْهـا

قد قاما واضطربا كرمال الكثبان نَشْأَةَ الريح.

ولما حال الحولُ على جنون لبيد حججْتُ إلى الكعبة. فلما انتهيت من مناسك الحج كرهت أن يكون حجا بلا زيارة. فإني لمنطلق من مكة إذ رأيت على طريق المدينة بيتاً منفصلاً عن البيوت، والناس بين داخل وخارج. ولم أكن رأيته قبل، فجئتُه، فإذا حانوتٌ وعربدةٌ وغناءٌ ونبيذٌ وخنى. فأنكرْتُها وأنا على حالي تلك من العبادة. وبينا أنا واقفٌ راحلتي هناك، إذ مرّ بي رجلان منصرفان من الحانوت وهما في نبيذ كثير. فقال أحدهما ولسانه كالقصبة في الريح :

قفا نشْك من ريحانة العين والحشى.

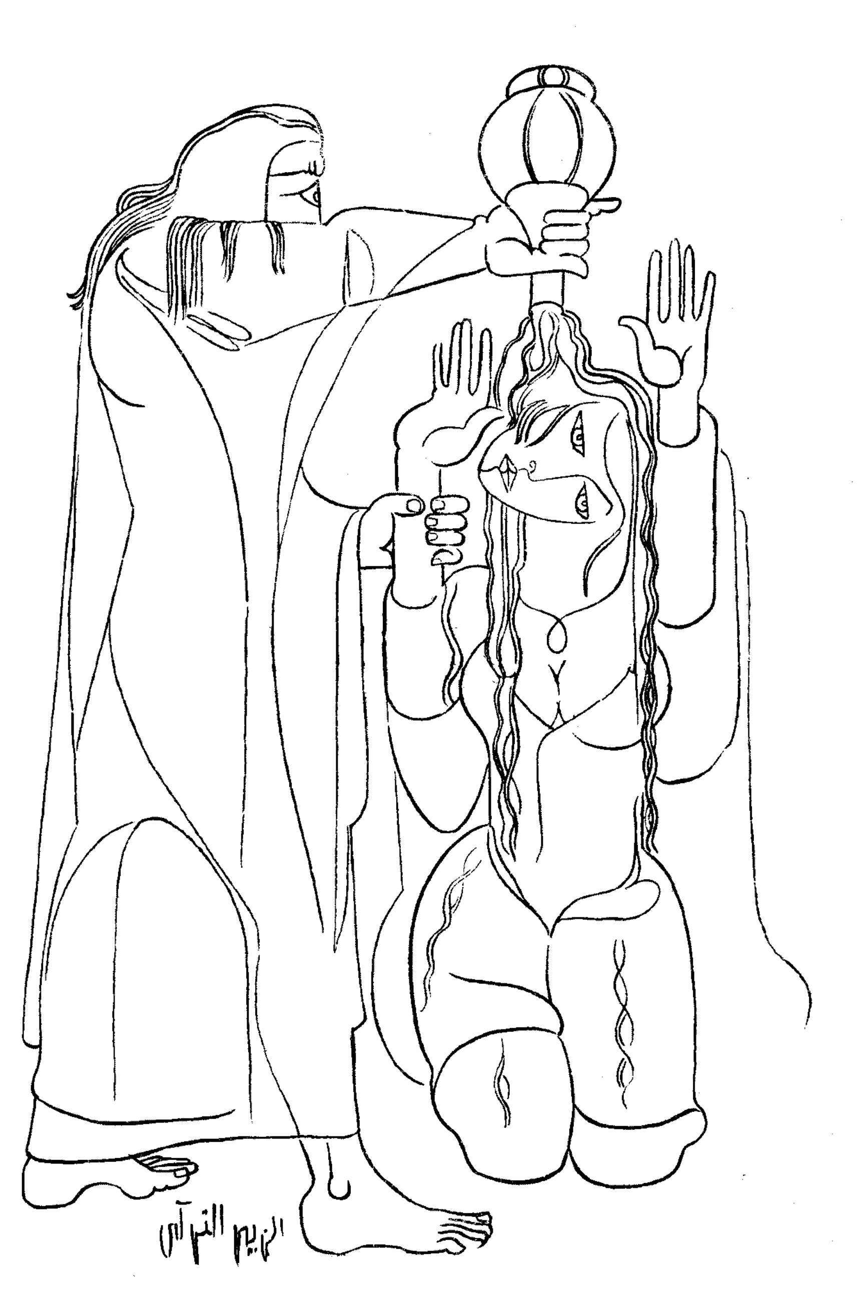
وقد ذهب عني شطر البيت. فقلت : لا أبرح البلد أو أعلمَ جليَّةَ الأمر. فعقلتُ راحلتي ودخلت. فإذا هي والله ريحانتُنا تغنّي وتُلقي إلى الناس فيبسطون لها الأيدي فتُمسك وتُعرض، كما كانت تفعل بنا. فخرجْتُ لساعتي وانطلقتُ لشأني. وكان آخر عهدي بها في شبابها وشبابي.

* *

ثم طواني الدهر وذهب أترابي في الحيّ ممن يعرفون ريحانةَ جميعا. وإنّا انتجعْنا قِبَلَ نجْد. فنزلتْ بنا امرأةٌ فأضافها بعض الحي. فسألْتُ عنها. فقالوا : إنها تقول إن اسمها ريحانة. فأمرْتُ أن تأتيَني فجاءتْ. فكانت هي والله. وكانت من حيٍّ إلى حيّ، لا تسكن عن الترحال. تحدِّثُ عن أبي هريرة ولا تبكي، وتقول : لقد جمدَتْ عيني. وهي يومئذ قد ضرب المشيب في شعرها، وذهب حسنُها إلا نوراً منه في العين، وأصابت وجهَها الأخاديدُ. وكانت لا تزال كعهدي ظريفةً لسنةً طيبةَ الحديث. ولكنّها أصبح بها كالبحّ، تقول فكأنما تبكي، وليس على وجهها إلا نفسٌ مسلمة راضية.

وكانت لا تتحدّث عن أبي هريرة إلا كان آخر قولها : رحم الله أبا هريرة.

حديث التعارف في الخمر



" رُدّا عليَّ الكاس إنكما

لا تدريان الكاسَ ما تجدي "

(أبـو نــواس)

حدثت ريحانة قالت :

كنت في مكّة. فذهبت لي بها شهور في حــانوتٍ. ثمّ كرهْتُ الخمر وعربدته والغناء وما كنــت أصنـع منـه، والكعبةُ على كثب تَعْتبر وتُصلّي. فنفرْتُ أياما، وصـاحبُ الحانوت غاضبٌ عليّ، وأصحاب الليل والخمـر إذا جُـنّ يسألونه عني. فلما كنتُ في بعض ليـاليّ هدّنـي أرقٌ فلـم أصـبر عليـه. فانسـللتُ فخرجـتُ أريـد المدينـة. وكـانت الساعة الغلس. فسرت راجلـة حتـى ذهـب بعـض يومـي، وأدركتْني الهاجرةُ وعقلني النصـب فحـامَتْ عيـن. فـلاحَ لي وراء جبل دخانٌ كلا دخان. فجهدتُ وقصـدتُ إليـه. فإذا حيُّ الأنمار إلا أهلَ لبيد. فنزلتُ بهم فأكرموني علـى انقباضٍ فيهم. وجاؤوني بطعام طيب فأكلْتُ وماء كـالبرد فشربْت. ثم اضطجعتُ فنمْتُ طويلا.

فلما استيقظتُ كان الليل قد اسودّ. ونظرت فإذا القوم في شأن لهم قد ملكهم. فصحت بامرأة رجل منهم كان يسمّى سعداً، وكانت مقبلة على قِدْرٍ وقد أدخلت يدها تخرج منها الطعام، فقالت: نزل بنا اللّيلةَ أبو هريرة، ونحبُّ أن نكرمه. قومي يا هاته فسيكون منه كالمأدبة. فقمت فرأيت رجال الحي وقد اجتمعوا إلى رجل لم أكن أعرفه، وهو يحدثهم ويضحك ضحكاً كثيراً. فرأيته سكرانا وكان كذلك.

ثم تهيأ الطعام، فصُفّف على بساط. وجُعل عند سمرة هناك. وجلس الرجال فتأخر عنهم الرجل، وقصد إلى راحلته فأخرج زقا من الخمر وجاء به القوم. فقالوا جميعاً: آخفيْتَها ضنًّا ؟ قال : بل خوف أن تتوقعوا فتذهبَ المتعةُ. وجلسوا جميعاً يأكلون ويشربون حتى ذهبت لهم ساعةٌ ونيران الحي تخبو وأصواتهم تعلو. وأهمّني أن يكونوا في لهو وأبقى في قطعة من الليل. فقمْتُ كالوالهة فسعيت، فوقعتُ على الزقّ فصببت وشربت أقداحاً. وصاح بي بعضهم : حسب الأنمار لبيد. وقام يريدني وقد أخذ منه الخمر. فقام له أبو هريرة ومنعني عنه وقال : دعوا الجارية تشرب. ثم دنا مني ولان وقال : ما اسمك يا هاته ؟ قلت : ريحانة. قال :

إنه ليس فينا إلا حفيٌّ بك محبٌّ لك. فنحن نشرب ونحبّ من يشرب. ألك في قدح آخر ؟ وأخذ الزق مني كأنما يريد ذلك. فإذا هو قد رفعه وصبّه على رأسي. فصحت وارتعت وقال : انظروا ريحانة الخمر. فانطلق أصحابه يضحكون مني. وهممت أن ألطم وجهه لطمةً تذهب بخمره. فما كدْتُ أهمّ به حتى أخذني واحتملني وأنا أضطرب، فجعلني تحت سَمُرَةٍ إلى الأرض وانصبّ عليّ. فوجدته صاحياً من أشدّ الرجال. ثمّ شدّني إليه حتى صرْتُ منه. وقام عنا الرجال. فجعل يرِقُّ ويحدثني ويقول : ما كان أحسن انصبابك على الزق. إلى أن طابت لي ريح الخمر على ثيابي.

فلما أصبحنا أردفني إلى مكّة. فلزمته ثلاثاً ثم رجعتُ إلى الحانوت وقد طاب مقامي. رحم الله أبا هريرة.

حديث القيامة

" متى كانت الحركة بشوق طبيعي لم تسكن البتّة "

(أبو حيان التوحيدي)

حدث أبو المدائن - وكان من خاصة أبي هريـرة - قال :

وقف عليّ أبو هريرة يوماً فقـال : مـا كسبْتَ فـي يومك ؟ وكان لا يلقاني إلا قال لـي ذلـك فأكرهـه منـه. فقلت : ألا تستحي ؟ ألا تجـدّ فـي قولـك ؟ لـم أكسـب شيئاً. قال : لـي عليـك إذن أن ترحّـب بـي، فقـد جئتُـك مبتاعاً. كـم عنـدك مـن الشـمع ؟ قلـت : لا يزيـد علـى السـتّين. قـال : هـي لـي كلهـا. فقمـت وأحضـرتهـا. فأخـذهـا من يديّ وقال : أما الثمن فهو لك عليّ قضـاءً، كصلاتي منذ سنين. فقلت : يـا رحمـك اللـه. أو جئتَنـي منتهباً أم مبتاعاً ؟ قال : أستغفر الله. بل مبتاعا على سـنة الله. ثم انصرف وتركني في حُمّة من الغضب، وكنت لم أبعْ شيئاً يُعَدُّ في يومي. فلما كـان المغـرب جعلْـتُ أتهيّـأ للانصراف. وإنّي لمقبل علـى البـاب أغلقـه إذا هـو مقبـلٌ

إلـيّ. فقلـت : لقـد حـلّ أجـل الدَّيْـن. فضحـك وقـال : لقضائه أتيْتُ. موعدك العشاءُ بضَيْعتي. ثـم تجـاوزني فـي إسراع المهموم المُلِمّةِ أشغالُه. فقلت : لا ينتهي والله. ثم لويتُ.

* *

وجاء العشاء فركبتُ فرساً لي يُحسـن السـير علـى ظلام الليل. وخرجت إلى ضيعة أبي هريرة. وكانت بنجد لا تصلح لزرع ولا لغيره، وفيها عِضاهٌ كثيرة مبثوثة. فلمـا قاربتهـا ألقيْـتُ البصـرَ فلـم أرَ نـوراً فظننتُـه أراد بـي عبثـاً ومزاحاً، وهممتُ أن ألوي الفرس، فإذا هاتفٌ يهتف بـي. فقصدتُ إليه حتى وصلتُه. وتوضّحتُ المكان فإذا أشـباح نفَرٍ جلوس وشيءٌ كالهاوية عليه صخـورٌ مشـرفةٌ. وكـان كهفاً. وتكلم أبـو هريـرة فقـال : ترجّـل. ففعلـتُ وأخـذ فرسي شبحٌ ودخل به الليل. وقلت : لن تنتهـي واللـه. مـا هذا ؟ قال : أنْصِتْ فستعلم الأمـرَ مـا فيـه. قلـت : ومـن هـؤلاء ؟ فقـال : جماعـة مـن الإخـوان يسـألون الظـلام. وهاته ريحانة. وإذا بجانبه امرأةٌ مضطجعـةٌ علـى صخـرة، مطرِقةٌ كأنها تصلّي وهي متعلّقةٌ به كالغصن بأصلـه. فلـم أرَ إلا الصبر.

* *

ومضت ساعةٌ لم نقل فيها شيئاً. ثم تكلمتْ ريحانةُ فقالت: يثْقُلُ الكَونُ إذا همّ أن يكون. وتكلم آخر فقال: لو لم يكن قبيل خلقه ثقيلا مُرهِقاً لمَا خُلِق. فقال أبو هريرة: لقد كان حينئذ كالألحان قبل الضرب. وليس أبدع من الأوتار تُجَسّ. ثم سكتوا وحدّثتُ نفسي أني وقعت في مصابين أو سكارى. ومضت ساعة لم يعودوا فيها إلى الكلام، وطال عليّ حتى كاد يذهب صبري. وبينا أنا كذلك إذ هتف مزمار همْساً رقيقاً نائياً كأنه الذكرى تتجمّع في أعماق النفس. ثمّ تعالى فإذا له صلصلةٌ وزفير وانفلاق ودويّ. وفيهْ إلى ذلك تثنٍّ كأنّ الريح تحطّه وتُعليه. ثم جُنّ واشتدّ وقامت إليه مزاهرُ ودفوفٌ وصوتُ مغنّية، فراحت جميعا في الظلام كالبرق. وكانت المغنية ريحانة. غنّت:

أسافُ ونائلهْ أوقدا جَذَواتي

أسافُ ونائلهْ وَانفيا عبراتي

وسكنتْ. فشدّ عليها المزمار والمزاهر واجتمعت إلى ذلك أصواتُ نساءٍ كثيرة قامت من أرجاء الضيعة فردّدن غناءها. ثم عادت ريحانة تغني وتشدّ عليها المعازف والمغنيات:

إن نفســـي لحميـــمُ رفـرف اللحـــمُ عليـــهْ
ودعَاهـــا يـــا ســـقيمُ ملـــك العجـــزُ يديـــهْ

أســـــــــافُ ونائلـــــــــــهْ
أوقـــــــــــدا جذواتـــــــــي
أســـــــــافُ ونائلـــــــــــهْ
وانفيـــــــــــا عـــــــــبراتي

هـــذه الدنيـــا إنـــاثٌ كلهـــا تدعـــو الذكـــورْ
يُســـمَع منهـــا لهـــاثٌ بـــدؤه بـــدء الدهـــورْ

أســـــــــافُ ونـــائـلـــــهْ...

كم أردنـــا الـــروحَ فيْضـــاً جارفـــاً صخْـــرَ الســـدودْ
وأثرنـــا النفـــس غيضـــاً داويـــاً مثـــل الرعـــودْ

أســـــــــافُ ونـــائلـــــــهْ...

وأكلنـــا الـــروحَ حِسّـــا وانفجرنـــا للهـــوى
ثـــم خفنـــا منـــه مسّـــا فجعلناهـــا هـــوا

أســـــــــافُ ونـــائلـــــــهْ...

إنمـــا الجبـــن بلايـــا وســـقامٍ فـــي ســـقام
مـا لمـائي فـــي الهوايـا ذاهـــب مثـــل هيـــامي
غـار فعلـي فـــي النوايـا كجبـــال فـــي ظـــلامِ

حتى استوفَتْ شعرها ثم سكنَّ جميعاً.

* *

ثم لم تلبث أن اشتعَلَتْ خمسون أو ستون مشعالا على مسافة في صفٌ واحدٍ قِبَلَنـا. وكـانت مـن الشـموع التي أخذها مني أبو هريرة. ثم تقدّم منهن مـا ينيـف علـى العشرين. فإذا عليها وجوه صفراء مختلجة كأنها المـوت وعليها كوضح الابتسام. ثـم وقفـن فخرجـت مـن بينهـم اثنتان وتقدمتـا إلـى شـيء فأوقدتـاه، وكـان حطبـاً مهيّـأ. وجعلتا تطوفـان بـه كطوافنـا بالكعبـة. فلمـا زفـر واحمـرّ اندفعتا ترقصان كأنما أخذهما دفَقٌ دافق. وكانتا ترقصـانِ كألسنة النار فهما خارجتان منها عائدتان إليها أشدَّ حُمْرَةً منها. وكنت أنظر إلى نهودهما فلا النهد يقر لي ولا اليـد تنفصل عن النـار. فـأرى النـارَ ذكـراً بـه لوعـةُ الصـادي. وصاحت ريحانة فالتفتُّ فإذا هـي تتملمـل كمـن أصابتـه حمّـى، فيشـدُّها أبـو هريـرة شـدّا ويقـول : أَطْفِئيهـا وإلاّ أطفأْتُك. ويقبلان على الجاريتين الراقصتيـن حتـى أراهمـا جاحظين.

ثم أسمَعُ الأصواتَ وقد قامتْ ثانيةً بأساف ونائله، ذكّيا جذواتي. واتّقَدَتِ النيرانُ على قوس فعددْتُها سائرَ الخمسين أو الستين. وتطاير الجواري كالشُّعَلِ من ورائها وطفقن جميعاً يرقصن والغناء معهن كأنه دماء تسيل. ثمّ انصرف إليهن من الظلام فتيان. فاقتفوهن وحاموا عليهن حتى رأيتُهم كالسافيات تنفضهن الرياح. وعاود رقصَهن عارضُ جنونه وهم أزواج. فكأنما ذهبتْ رَعَداتُهم بأرواحهم وفقدوا الوصْل، فتفرقتْ من أجسادهم أعضاؤها ومضَتْ سبيلها سكرى، وكانت قبلُ جماعةً ذات ألفةٍ، فتفرّدتْ وانقضى العدد ونفر العضوُ أخاه، فكأنه يطلب ذاته أن يفنى بها. ثم أدرك الفتيانُ الجواريَ فانقضى عنهم عزيف الحَوْم، وكانت الأصوات عند الردّة، فلانوا حتى كأنّ الماء يجري.

وبينما هن كذلك إذ خيّلت السماءُ وهبّ نفَسٌ من الريح شديدٌ سجدت له النيران وكادتْ تطيرُ الجواري. ثم هزم الرعد هزيماً رائعاً، وعصفتِ الرياحُ فانسابتْ ألسِنَةُ النيران على الأرض، فأدركت بعضَ العضاهِ فاتّقدتْ فانتشرتْ في جميعها فصاح الجواري والفتيانُ جميعاً. وصاحت ريحانةُ وقامت قيام النائمة لُدِغَتْ وانحدرتْ إلى النار. فوثب إليها أبو هريرة فأدركها وقد جاءتْ ناراً

وهمّت أن تلقاها. فحضنها عنها وقال : لأُعلّمنّكِ الصبر على النار. ثم أزفّ بها فأخذها الظلامُ عن عيني. فأسمع وقعَ فرسه منحدراً كالصخر. وأسرعْتُ إلى فرسي وأنا ذاهل عن الجواري وصحبي. فركبته وأرسلته، وبين أذنيّ زفير وصياح وصهيل خيل فزعة، والوهج على ظهري. فما رُدَّ عليَّ عقلي إلا بفناء بيتي.

وكانت ليلة شديدة.

* *

فلما أصبحتُ أصبح روعي غضباً على أبي هريرة وخوفاً على الجواري وصحبي. فجئته. فإذا بيته أنقاض سوداء قد أكلت النار أوصاله وألقت أحجاره كالعظام. وكانت لا تزال بقايا دخان خارجة منه بيضاء في الريح البارد، وأبو هريرة واقف عليه وقفةَ المعتبر. فاستلطفت له وقلت : الله أكبر. أو نارٌ هنا أيضاً ؟ تالله إنه لمن عقاب ربّي. وفاض حزني فبكيت. فأقبل عليّ وقال : دع البكاء وخذ فيما أقول لك. ثمّ أخذني إلى قطعةٍ من جدار طريح. فأجلسَني وجلس وقال وابتسم : لم أر كالأصنام ظاهرُها الروحُ وتملكُ الجسد. فأردت أن أثنيه عما أخذ فيه من مبهم القول فقلت : ماذا صنعت بعد الانصراف

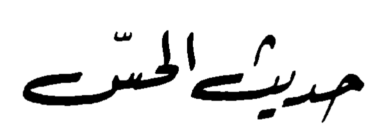
من الضيعة ؟ وأين الجواري والفتيان وصحبنا وريحانة ؟ وما خبر البيت ؟ قال : ملكتُ ريحانةَ عن نفسها فأردفْتُها إلى مكة. وانطلقتُ بها في الليل يحجب عنها جسدها. فما كدتُ أبرح الضيعة حتى جاءت المُعْصرات بالأنواء. وكان البرق يستطير فتنطلق السماء وركامها والأشجار والجبال وتقوم عصا الطريق فترتمي جميعاً على وجهي، وسيل الماء يكاد يجرفنا والفرس. وتهيّج الكون حتى كأنه جهنم الشياطين ولا نار. وكانت ريحانة تقول : يا أبا هريرة ذهبت ناري. وتبكي. وكنت لا أعي. فالمطرُ فالريحُ فالشدةُ فأنا أملأ ما أكون.

وانتهينا إلى حانوتها فألقيتها. وأتيتُ بيتي، فأطلقتُ الفرس بالفناء ودخلتُ على امرأتي. فإذا هي لائذةٌ بالسراج تطلبُ أنْسَه. فقالتْ : لقد بقيتُ أتوقّعك حتى ذهب التوقّع بالأمل. وها ليلتي جاءتْ.

قال أبو المدائن : وكان أبو هريرة لا يعاشر امرأته، وكانت تقول : أحببته حتى جعلْتُهُ نوراً في ظلامها نفسي على ما فيه من الشرود - قال أبو هريرة : ثم قامت تريد الفرسَ أن تُكِنّه. فقلتُ : لا تفعلي. فسيفعله بعض الغلمان. وهات حدثيني. وقد أعجبني منها أن ردّت إليّ بعض ما احملتها سنين. فلم تُبال وقامتْ إلى ما تريد.

فلما توسَّطَتِ الفناء انشق فَلَقُ الصاعقة فأخذتْها. فرأيْتُها وقد اشتعلتْ كأنها مَلَكٌ من نورٍ، وقفز الفرس روْعاً. ثم نظرتُ فإذا الأمر ناقص أبتر. ووددتُ لو احترقَتِ السحب، وإنما كان البرق ينيرها. فقمت إلى بيتي وأحرقْتُه وجلست أنظر إلى النار في الماء والماء فيها. فرمادها الآن تحت الخراب وقد أصبحت بين ما أردت لها أهلا من الملائكة والمخلدين. ثم قال : رحمها الله. لقد أردتُها على الجبال ومثل ما شهدنا البارحةَ من الجهاد وأن تمشي على دهرها كالفلك تسير آمنةً والهاوية. فقصرتْ عن ذلك. فلما خفتُ عليها أوْقعْتُها في روحها وقال : إن مثل كل جهاد لكمثل مصيرها. وينفضه البكاء.

فرققت له وبكيتُ وقمتُ به إلى بيتي. فأمضى به أياماً. ثم انصرف فلم أره دهراً. وسألتُ عنه فقالوا : إنه وريحانة...


حديث الحس

حدثت ريحانة قالت :

مرض أبو هريرة حتى أشفقتُ عليه. وكنت لا أبرحهُ ساعةً وأبكي وأوجع لألمه حتى كأني منه. فيهمس : ابكي ما لذّ لك البكاء. ويومئ أن ضُمّيني إليك. فأضمُه ضمّا خفيفاً، فيلقي بأذنيّ كالحنين ويقول : وجعت أن لستِ في مثل علتي.

ثم ذهب عنه بعض مرضه فدخل إلى الإبلال. سألته : هل عاد لك من الصحة ما كان ذهب ؟ قال : إنه قد استوى عندي أن تذهب أو تبقى، بل كدت أختار العلة.

يمرض الناس يا ريحانة فيطلبون الشفاء، فيثقل المرض فيضني فيذهب سدى. وقد طلبت الشفاء مثلهم ساعةَ مرضي الأولى. ثم وجدتُ في علتي ما لم أجده في الصحة وتمّت لي بها حياتي، فخشيت أن تعاودني الصحة والاستقامة فأموت. كذا نحن. ولعله لا يبلغ العلةَ من الناس إلا القليل. قلت : وهل في العلة غير الإمحال

وذهاب الماء يا حبيبي ؟ قال : لا أدري؛ فقد يكون. وقد تكون العلل من مُحْيِيات الحياة. بل انظري. - قالت : وكان في صوته كصدى غيْبٍ بعيد - إني أجد في جسدي وهو عليل كيف يرق حتى كأنه عود كلما جسَسْتُه أنَّ، وكيف تدق الحاسّةُ وتحتدّ. وقد ذهبت لي والله ساعات وأنا أقفو أثر الروح تنتقل من يدي إلى رأسي أو منه إلى صدري، وتتردد على الأعضاء والقلب والأمعاء تردد الفجر، فكأني أسبح في دمي يجري. ولذّ عندي، فيلذعني الألمُ في كتفي أو صدري أو رأسي فأنا آكلٌ حنظلاً لا كحنظل الناس، فيه مرارة وحموضة وألوان مختلفة ونار تضطرِمُ وتحسنُ في العين. فكأن مقدار القوة والحياة يزداد للعلة، وكأن قرب الفناء خلّاق.

ترين ؟ ألا تكون الدنيا من خلق الآلهة عند النزع يا ريحانة؟

ثم تنفّس فمدّ نفَسَه. ثم قال :

وددت من زمن بعيد لو أني عُلِّقْتُ بين السماء والأرض، أو أني جلست على قمّة جبل وقد طلّقتْه الأرضُ فطار. فلم أصب ذلك إلا في علتي تفكُّ الجسدَ وتميّزُ الأوصالَ فيخف اللحم والدم فكأني في الخُلد. إنه

لا تكون الحياة أبدعَ مما تكون بين العدم والكيان، ولا أقربَ من طمأنينة السعيد.

قالت ريحانة : ثم ابتسم وسكن. فنظرت فإذا دموعه كقطر الندى على خده وقال : آلمني أن يكون نصف متاع الدنيا في حال لا يصيبها الإنسان إلا حيناً بعد حين، إذا سَلِمَ من كثافة الصحة. وضممتُه إليّ وضمّني إليه. رحم الله أبا هريرة.

حديث الوضع



" ... لأنه قد صحّ أن شأن الحس أن يورث الملال والكلال ويحمل على الضجر والانقطاع "
(أبو حيان التوحيدي)

روي عن أبي سعد، قال : حدثت ريحانة قالت :

لما ذهبنا إلى المدينة سكنّا بيتاً منعزلاً عن البيوت، نشرف منه فتلقانا مقبرة المدينة. وكان أبو هريرة يقول : لا يطربني شيء مثل الزهرة على القبر، ولم أجد مثله إلا عند بعض الناس، تركب أحزانُهم مركبَ الهزل. فأقمنا بذلك البيت شهوراً. وكان أبو هريرة في أولها يكثر من الانصراف ويدعني بالبيت، فلا يردُّه علي إلا الغَداء أو العشاء. وكنت كلما دخل البيت وجد العنبر والمسك والعود قد نُشرت فيه، وألوانَ الطعام قد صُفّفت ودعت بالأفواه، وأطيبَ النبيذ والريحان قد تضوَّع وفاح، -فيضيء انشراحاً ويصرف سروره إليّ ويقول : لقد

علّمتِني الطعام ما لذّته وما سكرته. فهل علّمتُكِ يا ريحانة الجوع ؟ فأقول : نعم. ولكني مكتفية بكَ. ونجلس فأغنيه ويأكل ويسقيني. وكان كلما أتى طعاماً أخذه خشوعٌ غريبٌ. وسمعتُه يقول يوماً وشواء بين يديه يتقاطر : ما أعظم الشواء يستحيل إلى دمي. ثم تأمله طويلا وقال : هاته متع الدنيا. وكنا كثيراً ما نجلس للطعام بفناء البيت والشمسُ علينا. فيعبث بكساه في النور ويقول :يا لهفي على خمري تغشاه ظلمات الأحشاء. وددتُ والله لو تبع البصر ضياءه فيها. ثم يشرب قدحه صبّا فيغيب بصره وكأنما جرّه النبيذ إلى غيب أحشائه. وكان إذا أراد الطعام تطهّر له كتطهُّره للإحرام.

ثم قل انصرافه فلم يخرج إلا بي. فكان ينطلق بي إلى شعاب بضواحي المدينة. فنسير حتى يقعد بنا التعب فيحدثني وأحدثه. وقد أراني وأبا هريرة في بعض سيرنا بتلك الشعاب فأسمعه يهازلني القول ويضحك وعليه سِمةُ الفرح بالحياة.

قال الراوي : ثم سكتتْ ريحانة وتبسمت وشخصتْ بعيْنٍ عبرى.

* *

قال : قالت :

وخرجنا يوماً وقد أرْبعْنا - وكان الهواءُ كدمعة عذراء والسماء لا ريب فيها، وعليه ثيابُ وشيٍ وفضةٍ كأنها كواكب الصيف، وعليَّ من الحرير شُفُوفٌ تجري - فذهب بي إلى مرجٍ مزهارٍ. فأجلسني وجلس على الكلأ الريّان. فأطرق ساعة فقال : أتعلمين يا ريحانة أنه في بعض أحياني

تراكَضُ لَدَى قلبي خيولٌ كرُؤى السِّحْرْ
يدوِّي عصْفُها الدنيا ويذرو جبلَ الصخْر
فيشتدُّ على روحي جُموعٌ في دمي يجري
أمرّ من ضنى الحبّ وأدْهى من عنا الصبر

ثم لوى فأقبل على الأعشاب يضرب فيها بيديه ويستأصل منها قبضة بعد قبضة، ويقول : انظري كيف أخذَ العشبُ من يدي، فهي كالدابة الآكل. والله كرهتُ طعام الإنسان وحُبِّبَتْ إليّ الأنعامُ في مراعيها ترعى. فقلتُ : وهل من سبيل ؟ فقال : نعم. ومرّتْ يداه على وجهي وصدري حتى أخذتا خصري، وكدْتُ أتّقدُ وقلتُ : ألا تستحي. قال :بلى. ثم قام فعدنا إلى البيت.

وكانت لنا أيام لن يسقط ذكرها عني.

ثم أغمَّ وحالَ كسماء خريف. وقال : إني أجد كهمس المتناوحة العاصفة يا ريحانة، مثل عَقْر السحاب، يُسْمَع ولا يُرى. فجَهدتُ أن أصرفه إلى سابق فرحه بالحياة فقال :

مضى دهرٌ به كنّا وجدنا جِدَّةَ العمر

وشاخ النورُ ريحانَ وقرّت خلجة الفجر

فينتاب سنا عيني ظلامٌ كعمى الدهر

دَعِي الذكرى ريحانة فقد قتلْتُها في نفسي، وليس أقبح مما يدوم. انظري مغرب شمسك اليوم فلن تَرَيْ أبداً مثله. وقال : آيةُ جمالكِ ما لم تكوني ولن تكوني. فرأيتُه سَئم مضجعي وقلت : آثراً بعد عين ؟ قال : كلا. ولكنكنّ معشرَ النساء كالأنبياء، أضلّ الضلال عندكن وحدانية المتوحّد. وسكت ساعةً ثم قال :

وإن لك يا ريحانة سابقاتٍ. فهل لك في قصة أحبّهن إليّ. قلت : هات خبرك. قال : لم تقبل عليّ من النساء إلا جارية واحدة في شبابي. فقد كنتُ أطوف بالكعبة كل يوم، واقف على الحجر الأسود أستغربه وأستغْمِضُه. فأرى جارية تخرج إلى شأن لها من بيت هناك. تفعل ذلك كل يوم وتسترق النظر إليّ. حتى

ملَكتْ بصري وأصبح الطواف والحجر الأسود سراباً في عيني. وتجرّأتُ يوماً، فأوْمأتُ إليها أن تلقاني عند الصفا ليلتنا تلك. فلما جاء الليلُ سبقتُها إليها. فلمّا أحسسْتُ بها جعلتُ أترنّم بشعر صنعتُه فيها وأنا شديد الزهو به فهو أول شعري. فلما وقفَتْ عليّ سلّمتُ فلم تردّ. فحسبتُه خفراً وقلت : هذا من شأن العذارى. تبسّطي يا حسناء. فأوْمأتْ بشيءٍ فدنوتُ وأزحتُ جلبابها وكنت لم أرَها إلا تحته. وتبيّنْتُها فإذا هي من أقبح عباد الله صورةً وإلى ذلك صماء بكماء. فقلت : لقد ضاع شعري. وانصرفتُ ولم أقل بعدها شعراً في امرأة قط. فاحذري يا ريحانة أن تكوني صماء لا تعي أو نبيا ذا جَنّة.

ثم أخذتْه نوبةٌ من الغضب فصاح بي حتى ارتعْتُ : أكلّما تمرّد شيطانٌ في إنسان قامتْ له امرأةٌ نبيا ؟ أو كلما قامت في قلبٍ أعاصيرُ جعلتْها النساء خطوطاً مستقيمة ؟ دعيني يا هاته فقد كِدْتِ أن تقطعي عني سبيلي. ثم سكت فهدأ. فقلت : لا تصطنع. فقال وأقبل عليّ ودمعُه يرفضّ : أنت الحكيمة يا ريحانة، فهو اصطناعٌ كله يريد أن يكون حقا، وسيكونه. ثم جعل وجهه في نَحْري وقال : لو كان إلى النسيان سبيلٌ لكان

ريحُك أنساني. لكنْ هيهات ومع اللحم والدم والحس يجري الهوى فيها جُرافاً، علّةٌ في الإنسان يلقاها هنا أو هنا. وضرب على رأسه وقلبه.

قال أبو السعد : سألتُ ريحانة : ما أغربُ ما سمعْتِ من أبي هريرة حينئذ ؟ فقالت : لم يكن يُغْرب وإنما كان كلامه بعيد المدى. هذا حديث الأبد :

خلونا ليلة بالمقبرة - وكانت مجلسَنا إذا هدأ لي - فجلستُ إليه وعلينا قمرٌ كالحرير ونسيمٌ كالربيع، وقد سقط عني كل جَهْد فأنا كالصخرة الهاوية لا تنتهي. فقال : ما أحسنُ دنياك يا ريحانة ؟ قلت : أن تجتمع فيك ولا حصر. فأمسك ساعة وأمْسكتُ وأكلْتُه فأكلني وأفنيْتُه وأفناني. ثم قال : أوَ هذا الأبد ؟ قلت : نعم. وبلا قدم. قال : هيهات. قلت : ولكنّا دمّرنا القدم تدميرا. قال : بل حسبنا أنفسنا، ولو انتفى القدم لانتفى الموت. ثمّ زفر وقال : وأقصى الأبد الفجرُ يا ريحانة. ودموعه كرجع الموج عن الصخر. ثم سكت وقال : لا خير في مائدةٍ تجري من تحتها الأنهارُ وعليها ألوانُ الفواكه البِكر، تُجعَل لك وتُؤْذَين بالجولان فيها، ثم لا تُؤَجَّلين فيها إلا ساعةً واحدة فلا تتوقين إلى لونٍ منها. ثم قام فدخل البيت فجاء بخمر. فلم يزل بي إلى أنَّ وجدتُ

من خمره ما أزفَّ بي أرقص وأغنّي حتى ارتميْتُ من ذرى الجبال كراقصات الأساطير.

* *

وعادت ريحانة إلى حديثها. قالت :

وكنت أصبْتُ من معاشرته ما صار لي به كل شيء وضّاحاً، وتبرّجتْ لي به الدنيا تبرّجاً أكثر النفس. حتى شرب المفرَدُ العددَ ورأيتُني نوراً مشاعاً. فكأني البنيانُ ينفي أحْجاره ورخامَه. أجعل الدنيا بوعائي فلا تفي وأحب أن أقصُرَ النفسَ فتأبى. فلما تغير أبو هريرة ورأيته يتجمّع، أصبح مستحيلاً عليَّ واختلفْنا.

وجاءني يوماً فقال :إني راحل عنك. فقلت : وأيَّ السبل اخترْتَ لي ؟ فقال : العقبة يا ريحانة. قلت : وما الراحل بك ؟ قال : كرهُ البيوت. - وقد كان يدخل علي أحيانا فيقلب البصر في البيت ويقول : لقد سكْنتُ البيوتَ من يوم خُلِقْتُ، فلم أصب منها إلا البابَ أعلم أني أَدخل أو أَخرج منه، أو الجدارَ أعلم أنّه يردّني لو طلبتُ الخروج منه، أو السقفَ أخشى أن يقع علينا. وإنّ من الخير والشر والسعادة والشقاء لكمثل بيت نسكنه ونحن نقول : إنّا وجدنا آباءنا فيه - فقلت : وقد كنتُ

بيتاً فكرِهتَه. فقال : نعم. ولو اكتنفْتِني فاكتفيتُ بك إنـي إذن لجبان. وقد حذّرتُكِ أن تكوني جنّتي. فإن شئْتِ يا ريحانة أن أبقـى فلتفْنيْ وإلا ارتويتُ. فأدركتُ أنه قد عاوده الجَوْس - وكان شديد الكره للنزول يرتاد ولا ينزل، ويقتله الطمعُ ويُحييه اليأس ويخاف أن يستقرَّ الجهد وينقطع الشوق - فقلت : افعلْ ما ترى. فقال : آخذ عصاي.

ثم خرج فإذا هو منطلق بأحد مخنّثي المدينة.

وكان آخر عهده وعهدي.

وقد ذهب فنَغَّص عليَّ ما جاء بعده من الدنيا فلم أجد بها طعاماً بعدَه. وذهب الفجر بالأبد.

لقد كان دائمَ التَّوْق إلى الشمس دائمَ الخوف من طلوعها. ويقول : إن استطعتَ فاجْعلْ كاملَ حياتِك فجرا.

رحم الله أبا هريرة.

حديث الوضع أيضًا

حدث أبو هريرة في آخر عهده بالدنيا، قال :

لقد وضعْتُ من الناس كثيراً وغلبْتُ نفسي عن كثير من متاع الآخرة والدنيا، فلم يكن أشدَّ من وضعي لريحانة. وضعْتُها كما تضع الحاملُ المُعْسِرُ؛ ولو بقيتُ معها يوماً بعده لطرحْتُها طرْحاً لا عناء فيه.

ثم قال : فأنا منها إلى اليوم أعجزُ الناس عن الحب.

Twitter: @ketab_n

حديث الشوق والوحدة

" المجدود من يستنبط من بين الناس صديقاً "
(علويه)

حدث أبو المدائن قال :

لم يكن أشدّ شوقاً إلى صديق لم يُخْلَق من أبي هريرة. كنتُ أقول في بعض الأيام : عِمْ صباحاً يا أبا هريرة. فيلْقاني بعينيْن كأنّهما الغيبُ ويقول : مَن أنت ؟ أو : ممّن أنت ؟ ويمرُّ كالخيال.

حديث الحقّ والباطل

حدث معن بن سليمان قال :

كنت أنا وأبو المدائن وأخي حرب نجتمع في بيت أبي هريرة كل يوم جمعة عند الظهر. فنتغدّى ونتحدث ثم نخرج عنه فنذهب إلى المسجد فنصلّي.

فدخلنا عليه مرّةً فوجدناه بفناء بيته وقد بسط فيه فرشاً خفيفاً وجلس فأطرق وسجا. فسلّمنا وقلنا وقد أدركْنا فيه همّا باطناً :فيمَ هذا الوجوم ؟ وكنا نعلمه غريب الأطوار ينصرف إلى ما لا يخطر ببال. قال : إني فقدْتُ السماءَ وارتدّ عليَّ الهواءُ رصاصاً، ونظرت فكلَّ نظري عن مدى العين وارتدّ البصرُ ظلاماً. ألا تجلسون ؟ فجلسنا وقلنا : هوِّنْ عليك. فيمَ هذا الغمُّ كلّه ؟ قال : ستسمعون خبراً غريباً. هي أختي، رحمها الله، وقد ذكرتُها.

ثم أمر بالطعام والنبيذ. فجاؤونا بمائدة عليها لحمٌ مشوي ورطب ونبيذ كثير. فأصبنا من الطعام وصببنا من النبيذ، وهو مُمْسكٌ لا يمدُّ يده إلى رطب ولا شواء ويشرب ولا يقول شيئاً. فلما فرغنا من الطعام، وهو على

وجومه كالممتلئ بكاءً لا ينفجر، ثقل علينا وأَغْدانا من غَمِّه. فقلنا : قُلْها، قد ضِقْنا. قال : هل تعرفون للنار معنى ؟ قلنا : لا والله. قال : يرى الناس نيراناً كثيرةً. ولكن أكثر الناسَ لا يفقهون. وللصاعقة ؟ ولظلمات القبر ؟ ولانهيار الصخور في الجبال ؟ وللرياح العاصفات هل تعلمون من معنى ؟ قلنا : كلاّ والله. أيُّ شيء هذا الكلام ؟ قال :

كانت لي بين السادسة والتاسعة من عمري أخت لم تَعِشْ إلا ثلاثاً. وكنتُ أحبُّها حب الشياطين للشر. وكانت ذات عاهاتٍ لا تدَعُها علةٌ إلى أصابتها أخرى. وكانت إلى ذلك بكماءَ صمّاءَ. أسألُ في ذلك فيُقال : هو القضاء. وكنت كلما بكت بكاءها عطفتُ عليها وحفَفْتُها، فهي بكماء حتى عن مُطلق البكاء تريده فتتوجّع ولا ينشرح لها. وكنت أرعاها فألهيها بما أتعلّم من الألعاب مع أترابي في الحيّ. وكانت أمّي تنكرها وتقول : هي من سِقْط أو عبث الأقدار. فلم تزل كذلك ثلاثاً حتى نزلت بها يوماً علة ذهبت بعينيها ثم لم تلبث أن ذهبت بها، فصحْتُ وبكيتُ ونَدبْتُ وطال عويلي. وحسبتُه الشيطان وقالوا : هو والله.

قال معن : قلت : هذا ليس فيه ما يُحْمِل مثلَ غمّك. فلا تجعل نفسك كالجبل يدعو الصاعقة فإذا

وقعتْ عليه ارتجّ وأصْدى. قال : لقد علّمتْني البكـاء من القضاء. ثـم صـبَّ فشـرب ثـم انفجـر فبكـى حتـى رأينـا الدموعَ في لحيته. فرققنا له وقلنا جميعـاً : رحمهـا اللـه. وصبَّ لنا فشربنا. وما زلنا كذلـك نشـاربه ويبكـي حتـى جاء وقت الصلاة. فقلنا : نذهـب فنصلّي فيذهـب ذلـك بغمّك. قـال : دعونـي. نصلي أو لا نصلـي ونسـعد أو نشقى هل ترون فيه من خير أو شر ؟ ثم قال : شرٌّ ما في الدنيا أن الحياةَ عبث. بل لا أدري. لعله خيرُ ما فيها.

* *

ثم قمنا إلى المسجد وجلس عنه يشرب فلا يُـدرِك السكرَ ويبكي. وجئناه بعد العصر لننظر حاله ونصرفه عن خواطره، وكان إذا وقع فيها طالت به أيامـاً. فلمـا دخلنـا لقِينا بوجهٍ باسم وحالٍ قد انقلبت عن الكدر. وقـال : مـا شأنكم في الدنيا ؟ باطلٌ أم حق ؟ قلـت: ألـك فـي خمـرٍ عتيقة ؟ وكان لي منها دنّ جاءتني به قافلة من الشـام فـي يومي. قال : أمّـا هـذا وحـده فـلا. فـإذا زدت عليـه نـارا نوقدهـا ونشـرب فنعـم. قلـت : وجهنـم إن شئتَ. قـال وضحك : أنت غِرٌّ يا معن. أتظنّ بجهنّم نارا ؟ ألا وربّهـا لو كانت فيها شرارةٌ لذهبَـتْ هبـاء وبطـل العقـابُ. إنمـا النار يا ابن سليمانَ من أمر الدنيا. ثم قام وهممنـا بالبـاب

فإذا هو يلوي ويقف. فقلنا : ما لك ؟ قال : سترون. ثم صفق بيديه فأقبل غلمانُه جميعاً. فجعل يسمي كلاًّ باسمه ويقول : اذهب يا فلان، فأنت حر. حتى صرفهم وأعتقهم جميعاً. ثم أقبل علينا فقال : وددْتُ والله من شدة القلب ما أبلغ به كَسْرَ الحياة حتى أراها حُطاماً، أو من الحكمة ما أقدر به على اللعب كالصبيان حتى تذهَبَ أيامي، أو من القدرة ما أُعْتِق الحياة كغلماني فتمضي.

ثم جلسنا إلى الشراب ببيتي وأوقدنا ناراً لظى. فلم يزل أبو هريرة يشرب عليها ويقول :

أنظُروها تُرَّهات لا تقِرّ وجهَ حقٍّ باطل ليس يَبِرّ

كالحياة

وغيره حتى كان الليل.


حديث الحاجة

حدث أبو المدائن قال :

كان أبو هريرة سَرّاقَ أرواح. وكـان مـن المُولَعيـن بالصيد. يخرج فيرمي الرميَّةَ فيصيبها فيشرحها ويُلقي بها، ولا يأتي بشيء من ذلك إلى بيته. وكانت تأتي عليـه أيـام يقول فيها : لِمَ حُرِّمَ أن يُرْمَى الناسُ ؟ تُقْتُ والله أن أشـقَّ منهم فأنظر ما في أمخاخهم وقلوبهـم وأحشـائهم. ثـم يقول ويشير إلى بعض عابري الطريق: أنظر إلى هذا. إنـي أراه سَلَبَني حقي، يمرُّ ولا أصيب ممّـا فـي صـدره شيئاً. فأقول: وما أحوجك يا أبا هريرة إلى غـيرك ؟ فيقـول: لا أدري، أو لعله ضيـقُ محبسِ النفس الفَـرْدِ. وقـد أحسـد الصبيان حسداً شديداً. أتذكر صِبَانَا ؟ كنتُ أشهد سـباقَ الخيل، فلا ينتهـي السـابق إلـى القصـب حتـى أكـون قـد استفْرَغتُ في قلبي جهده وسرقت تعبـه. وكنـت أُلاعـب أترابي في الحـيِّ، فنكـون ملوكـاً كملـوك الـروم وطيـوراً وسباعاً ورياحـاً عاصفـة ونستوفي جميعَ مـا خلـق اللـه. فكان يبلغ بي الودُّ والشوقُ مبلغَه، حتى لقد تشبَّهتُ يومـاً ببعض قطّاع الطريـق، فتلبَّسْـتُ بـه، فلـم أطلـق أصحـاب

القافلة إلا بعد أن علقت رواحلهم وشـددت عليهـم حتـى بَكوْا وعلتْ أصواتُهم صياحاً. ثم أفقْتُ فإذا أنا قد مزّقـتُ ثياب أصحابي تمزيقاً وأوجعْتُ أكـثرهم ضربـاً وشـكوْني إلى أمهاتهم.


حديث الطين

" قلت : وما أكمل العقل ؟ قال : معرفة الإنسان بقدرته "
(الراهب الجرجاني)

عن أبي هريرة أنه قال :

خرجتُ من المدينة وقد أخذْتُ عصاي أتوكّأُ عليها فأُحمّلها ثقلي. فتصوّرتْ لي بكرٌ من الأرض تدعوني. فطرحتُ ما كان معي وقد كسفتْ عنّي لذتُه. ثم أوقعتُ بها رجلي فكانت كالخلق أو كالدهر. وهِمْتُ فلم أزل فيها كعروس ليلته حتى مضت لي أيام وأنا أطلب من الفاكهة ما لا يعرفه أحد وأدعو الكوْنَ أن يُعاد وأغبط آدم وحواء. إلى أن تمّ على انفرادي فصار لي الليل والنهار كالعبث ليس من ورائهما شيء، واستوى ليَ الزمانُ فهو كالبحر الساجي.

أو كالأبد.

* *

رواه أبو عبيدة. وحدث بمثله ثابت القيسي وزاد عليه فقال :

وكان أبو هريرة إذ ذاك بكُراع الغميم، وادٍ ذي رمال بين الحرمين، يقال إنه كان من أرض الجن لا تبرحه المُعْصِرات المُعْمِيات إلا قليلاً، فهو شديد المراس لا يجرأ عليه أحد. فرآه به من أخبرني - وظنّه من الجنّة - قال : رأيتُه وقد أقبل على رسم يلعنه ويلعن القرونَ الخوالي ويتفل كالشيطان. ثم أنشأ يجيل بصره في حيرة الفاقد صاحبه. ثم عمد إلى مكان فاضطجع.

قال ثابت : فذكرت الخبر يوماً لأبي هريرة وسألتُه فيه فقال : نعم. وقد ضقْتُ يومي ذاك، فطلبتُ فرجةً، فقلت في آدم وحواء رثاءً وجئتُ به نساءَ حيٍّ كانوا بالوادي. فأبيْن أن ينحن به وقلن : هذا أبرد ما رأينا من الرثاء. أنت أحمق. فقلت : نعم. ونُحْتُ به وحدي، فلم أجد والله أبردَ منه. وضحك أبو هريرة. قال ثابت : لعله يريد حيّا ونساء من الجان. أو لعله أنشأ الخبر إنشاءً دون مطابقة. فقد كان أبو هريرة لا يخطئ أمراً مما يُغالِطُ فيه، يُصيبُه فيغالط به، كأنما يكره أن يبوح بباطن سره أو يعْلَمَه أحد، حتى اشتبه أمره على الناس. قال : فقلنا له : وما كانت حاجتُك إلى رثاء الشيخ والعجوز ؟ قال :

لأنهما كادا أن يعلماني جهلهما الدنيا وبِكْرَ السبيل. فلما فقدتُهما عادتْ تقودني السبُل المسطورة، ووقعْتُ في سابق قصتي ونفسي، وكنت أريدُها عذراء لم يطأها واطئٌ، فإذا هي عجوزٌ فاجرة.

قال أبو عبيدة - ولم يروه ثابت :

قال أبو هريرة : وجلست ذات يوم. وكان زادي قد نفد من أمسي والهاجرةُ قد نشرَتْ جنّتَها على الأرض، فأنا في صفاء الضحى لا يشوبها غَيْمٌ وضياء النار. وكنت بوادٍ رماله كأمواج السراب يركبها البصرُ فينساب وتكاد تشفّ. فما مضت لي ساعة في اطمئناني حتى همستْ ريح بمثل نجوى الإنسان. ثم قويَتْ فذرَت الرمال فخفقَتْ لها على الأرض كثوب خزّ. ثم زفرت فذهبتْ بها كألسِنة الأفاعي. ثم اشتدت وزفرتْ فهي تمور كالبحر. إلى أن كشفتْ لي عن رسوم بالية فيها جمجمة بالية. فذهب ذلك بوحشتي ونَزَعَ فرحي وقلت : ما طلَبَ الوحشةَ طالبٌ إلا استيقظ له رسْمٌ دارس. فكأني أجده بقلبي. وكرهته فهممت أن أنصرف. وكنت خرجت لأمحو قصتي فإذا هي فيَّ من قبْل آدم لا تمّحي. ثم انتشرتْ خواطري فاضطجعْتُ فأغفيْتُ.

* *

فرأيتُ في منامي رُؤْيا لم أر قط مثلها حماقة وغرورا. رأيتُ بلداً غريباً أهله حيناً كالنمل وحيناً كالفِيَلة، وهم يعجنون طيناً ويجعلون الحجر على الحجر فيشدُّونه به فيتّخذون صروحاً. ومن بينهم جماعة يغنون شعراً يُوقّعونه على أحجارهم يرفعونها :

العقـــل ردَى | والفكـــرُ سَـــقَمْ
والـــروح صـــدى | روح العـــدمْ
والفعـــلُ بَقَـــا | والجَهْـــدُ ســـلَمْ
فلنبـــنِ بنـــا | يَنْفـــي العـــدمْ

ومرتل يتلو بقراءة حمزة:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرِي. فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّيَ أَطَّلِعُ إِلَى إِلهِ مُوسَى. وَإِنِّي لأظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبين ﴾.

فيردون عليه ويدخلون فيه من لهجتهم حتى كأنّها دويُّ السماء ترتَجّ : "فكذّب وعصى - (بنضلدَلَّمْ) - ثم أدبر يسعى - (بَنْهَرَ تَلْغَمْ) - فحشر فنادى - (بـرْ آنَهَنْدَمْ) - فقال أنا ربكم الأعلى".

فلما استيْقظتُ قُمْتُ إلى أحياء العرب فبقيت فيها سنتين.

قال أبو عبيدة : ولم يذكر أبو هريرة معنىً لِمَا ورد ثِنْيَ الآية من البربرة، تنزَّه كلامُ ربّي عن رطانة العَجم. وإنما هو الشيطان في النوْم أَلَمَّ.

حديث الكلب

حدث كهلان – وكان من صعاليك العرب وشِداد لصوصها – قال :

إني لعلى بعض الطرق أنظُر حيّا أو قافلة أُصيب منها إذ أشرفت عليّ قافلةٌ كأنها ثعبان. فهي في عِدّةٍ لا أقدر عليها. فقلت : أُرجئها إلى الليل. ثمّ ركبتُ ونزلتُ فقلت : ضالٌّ يسترحم. وعانقْتُ أوّلَ مَن لقيتُ منهم ودفعْتُ الدمعة. فرقّوا لي وانهال عليّ الطعام والشرابُ وكنتُ ممتلئاً فتحمّلتُ ما لم أتحمّل مثله قط. ثم سرنا وأنا أطلب في صحبي والعير والبضاعة مقتلاً أصيبهم منه. وكنّا في سنة نزلتْ بالناس ففرّوا لها فراراً وتعاقبتْ أحياؤهم في اضطراب الوالهة الثكلى. وكانت القافلةُ لا ينامون إلا وعلى العير والمتاع رقيبٌ. فلما جاء الليل وقام رقيبُهم صبرتُ عليه إلى أن خفق الليل ووقع بعينيْه رشاشٌ من النوم. ثم اخترْتُ من الإبل خيرَها وركبْتُ وسقتُه. فما زلتُ أكدّه سيراً حتى نجوْتُ. وكنت على مسيرة يوم من أحبّ مكاني إليَّ. وكنت أريدُه. فما زلت ألح على فرسي والجمل حتى كانت الهاجرة واحتدّ عليّ حمّى الشمس فالسماء حديد.

فأنا إلى كِنَّة من جبل إذ سمعتُ هاتفـاً وراءَه يئـنّ. فقلت : بقيّـةُ حـيٍّ قضـى نحبه أو رائـدٌ حـاد عـن سبيله فهلك. ثـم قلـتُ : أَرحَمُـه فـأُصيبُ فيـه ثـوابَ المُغيـث. فمِلْتُ إليه. فلما أشرفْتُ إذا رجلٌ مسـتلقٍ والوهـج يأكلـه أكل الحسـناء للعفّـة. فبـادرْتُ إليـه وأقبلـتُ عليـه أُقيمـه. فكأنّ الرجل لـم يرَنـي. فصحـتُ بـه : هـات يـدك. فلـم يحرّك يـداً ولا طرفـتْ عينـه. ثـم إذا هـو استوى فصـاح كمَنْ بهِ مسٌّ : أو هكذا يزْني الدهرُ بالأمل البِكر ؟ سِرْ يا هذا ودعني فقد وقفتْ سبيلي. فأردتُ احتمالـه فاسـتلقى وهمس كالمُدْنِف انقطعتْ أنفاسُه : دعوني يا أوْضعَ مـن وِهادٍ، يا أضعفَ من عبادٍ، يـا أحقـرَ مـن بعـوض يـا بنـي الإنسان. وارتعد ارتعاد العريـان فـي يـوم قـرّ. فقلـت : لا تُفعَل الحسنةُ بمن يردُّها. وقلت : يرحمه الله. ثم رجعتُ فقِلْتُ وانصرفتُ.

* *

فمـا سِـرتُ سـاعةً حتـى لقينـي نَفَـر علـى رواحـل مزبِـدة، وهـم يُجهِدونهـا كـأن علـى اثرهـم يـومَ الديـن. فاستوقفوني وقـالوا : هـل أصبـت فـي طريقـك منفـرداً كالتـائـه ؟ فأخبـرتهم بخـبره. فقالـوا : ذاك أبـو هريـرة.

ما الوجه إليه وكنتُ سمعتُ خبره وأنّه من سنة أو سنتين يطلب حملَ الناس على مذهب غريب ويقول : ليس من شأن الإنسان الفناءُ والصبر. ويضرب الأمثال ويذكر العبر. فيهزأ به الناس ويتبعه الصبيان. ثم سمعت أنه تغيب عن أعين الناس. قلت : إني منطلق بكم إليه. وذهبنا سرعانا. وسألْتُ النفر ممّن هم، وكانوا ستّة وسابعهم كلب كأنَّ لسانه قطعة من نار. فقالوا : لقد أسْقط عنا أبو هريرة أنسابَنا فنحن لا ننتسب. فتركت كلامهم، وسرنا حتى وقفنا عليه وهو لا يزال مستلقياً كالخَلَق الطريح، وقد فنيتْ في عينه الدنيا. قلت : ما نصنع بالرجل ؟ قالوا : نحتملُه إلى ماءٍ وظلٍّ قريب. وكان في كلامهم حيرة. وكنتُ عالماً بجميع مياه المكان. فقلت : أنا لذلك. واحتملْتُ أبا هريرة، وكان قد ذهب عن الحسِّ ذهاباً، فهو في خفّةٍ غريبةٍ كأنه الروْح. ثم أردفْتُه وأشرتُ إليهم فتبعوني والكلب بين أيدينا كخفق السراب. وذهبتُ بهم حتى نزلنا بئراً ميّهة عندها صخورٌ مبثوثةٌ كهام الأوّلين. وكنتُ جعلتُ عليها عريشاً واتخذتُها كِنّا ومَكمناً إذا أصبتُ فيْئاً أو سبيْتُ سبيّة. فجعلتُ أبا هريرة تحت العريش وقلت : صاحبكم تكاد أن تنضب رُوحه. فعجِّلوا بمائه وطعامه فإني أراه لم يطعم

شيئاً من أيام. وألقيْتُ دلوي فأخرجتُ ماءً كالبرد. ثم سقيناه ففتح عينيه، فأطعمناه وهو لا يقول شيئاً. ثم أخذتْه الحمّى فدامتْ به أياما. وكان الكلب لا يبرح جانبه وهو في لهاثٍ كالمدّ والجزْر. وبقينا كذلك أياما، وكانت تصيب أبا هريرة عند هاجرةٍ كلّ يوم نوبةٌ شديدةٌ يهذي لها فيقول : فرعونُ أم الله ؟ أو يقول : يا أوضع من وهاد... ويعيد كل ما سمعته منه يوم وقعت عليه. فكنا نصبر له ويبكي أصحابُه حتى كأنهم نسوة ويقولون : مات سيّدُنا.

* *

وسألت النفر عن أمره فقالوا :

كنّا من شدّة السنة في مثل لهاث الكلب، نطلب القوتَ بالسيوف ونكمن للقوافل والأحياء ويُكمَن لنا ونُغير ويُغار علينا. حتى ذهب منّا ومن أعدائنا. واطّلع علينا يوماً بعضُ أحياء بني مرة - وكنا قد حملنا امرأةً منا وطفلين إلى الحفرة وأكلْنا إبلنا ولم تبق لنا إلا الأفراس. فنحن إلى عاجل الثبور - فأغَرْنا حتى طرحناهم كالعناصل. ووقعْنا على الرحال والأحمال. فلم نُصبْ منها إلا نوَياتٍ هزالاً مُصّت مراراً. فكأنّنا قتلْنا مَيْتة.

وبقِينا كبغل الطّحان نُحوِّم ولا ندري المصير. فإذا أبو هريرة طلع علينا بكلبه وعصاه. فأقبل على الجُثث فجعل يحثو عليها الترابَ ويحثو كلبُه حتى وَارَياها جميعاً. ثم وقف فبكى وصلّى لها وسجد كلبُه. ونحن ننظر إليهما وليس فينا من يكلمه ولا من يقدر على الكلام. ثم أقبل علينا وقال : أتعجبكم جُثَثُ القتلى تفوح ؟ أيُغنيكم الموت ؟ أم تفعلون ما لا تعلمون ؟ ثم أومأ فقمنا إليه. فسار حتى وقف بنا على أحد قتلانا وأزاح التراب فإذا وجهُ حسناء كأنها النور. وقال : وقد جعلتُمُوها ظلاما. ثم حثا عليها التراب وقام ويبكي.

* *

وحدّثنا وحدّث الحيَّ حتى طابتْ لنا الحياة. وقام يهدينا حتى نزل بنا جنات ووديانا طاشت عنها أعينُ الناس فهي على وجه الأرض وكأنّها من السماء. ومكثْنا عليها أياما نصيب من الفاكهة والريحان، عنباً وتفاحاً وتيناً ورماناً وعَبْهراً ونسرينا. ثم جاءنا فقال : أَطِبْتُم نفوساً لغير القتال ؟ قلنا : نعم. وقلنا : أنت سيدنا. فقام بنا إلى الأحياء نعترضها فنستوقفها فيقوم فيختْطِب فيقول : إن الجهاد قائمُ السيفِ بينكم يَزْقَر كالصخرة

الظمآى ويُوري الفِتَنَ الصماء. فهي عليكم كقِطَع الليل أو كعَنِيد السيل سوداء. وأنتم مسلمون راضون ؟ والله إنها لمن المعجزات. إن الذئاب تلبّستْ بدمائكم فأعارتْكم وحشةً وظمأً وجوعاً، وأنبتَتْ بأفواهكم أنياباً حديداً. فتآكلتُم وتقاتلتُم. فلا القتْلُ أَرْوَى ولا النهبُ أشبَع. والله إنها لمن المعجزات. تُفسِدون وتهدمون وتجعلون ما خلق الله دماراً، وأنتم لا تعلمون ما تطلبون. ألا إنّكم فؤوسُ الخراب. أفلا تستَحُون وترعَوُون؟

أو يقول شبيهاً به ثم يسكت. فيصيح الناس : كلامك لا يغني من جوع. فيشير إلينا فنُمْطِر عليهم مما احْتَمَلْنا من الفواكه والتمر والبُرّ والرند والريحان. فيُقبلون عليه رُكّعاً وسجودا. فيعرض ويقول : كذا أنتم شرٌّ ووهن. والله إنها لمن المعجزات. ثم نقوم بهم فنُنزِلُهم الجنانَ والوديان.

* *

ثم عادت الفِتَن ونشأ الحسد بين أهل الجنّات. إلى أن أمسى أبو هريرة فلم يصبح. ولم يفتقدْهُ من الناس غيرُنا. وطلبناه أياماً فلم نقف عليه. ومضت شهور. ثم جاءنا الكلب فقفوناه. وها نحن بين يديه وهو كما ترى.

ثم يعود إليهم البكاء.

* *

قال كهلان: وأقمنا على ذلك أياماً. حتى خفّ عنه الداء. فقال لأصحابه: دعوني وعودوا إلى الجنات والوديان؛ فقد تفتقدكم أمٌّ أو عدوٌّ. فانطلقوا انطلاق الجسد برحتْهُ الروح. وبقيتُ وأبا هريرة وكلبه. ثم إذا هو دعاه فقال ومسح على رأسه: وأنت أيضاً يا حبيبي. لو انطلقْتَ لكان خيراً. فانصرف الكلب وهو يعوي. فلم نزل نسمعه عند العتمة وعند الفجر. فهو إلى اليوم يعوي ثلاثاً عند الغروب وثلاثاً عن الفجر، وتسمعه القوافلُ والأحياءُ ولا يراه أحدٌ في ليل ولا نهار. وكان أبو هريرة يقول: هو أيضاً يُؤْلِمه القضاءُ فيبكي. إنه يعوي شأنَه في الحياة حصيراً بما قدِّر له. ذاك أنين المريض أو ثورة المُتمرّد. فأقول: وما تعلم الحيواناتُ من حظّها والقضاءِ؟ فيقول: لعلها تشعر منه شعوراً فتوجع توجُّعاً لا ندركهما ولا نفقه منهما شيئاً.

حديث العدد

حدث كهلان قال :

لما ذهب أصحاب أبي هريرة والكلبُ خلوْنا. وكان لا يزال على بقية من مرضه تباطأت به. وكنت على رأسه لا أبرحه. فكان يحدثني حديث الميت يُبعَثُ كرهاً ويتوق إلى موته. فسألتُه يوماً في شأنه بين الناس. فقال : عشتُ في الناس ثلاثين. فلم أرَ والله في واحدة منها إلا ذئباً ينهش ذئباً أو صادياً يشرب فيشتدُّ صداه. ولا خير في الوحوش ولا خير في النفوس الصوادي... والأرضُ في ذلك تنشئ وتعيد. ثم انطلق به الفكر وكان كلما انتشر في خواطره سجا كالبحر وشاع كالدهر وامتدّ. فكرهت أن أسأله ولزمت صمتي حتى عاد إليه الكلام فقال : أتحبّ أن تسمع خبر هؤلاء ؟ قلت : نعم. وخبرَ من عرفتَ جميعا. قال :

منهم قوم هؤلاء الستّة. وليسوا من شأني. أدخلْتهم وكثيراً غيرهم جناتٍ ووديانا فسجدوا لي. ثم نظرتُ فإذا النعمة ترشح بالشر والكُنود، وإذا هذا يفترش عرض ذاك

وذاك مائل النظر إلى امرأة أخيه وآخر يجيل يده كلَّ ليلة في متاع جاره وذويه. ولم يلبثوا أن نسُوني. ألقى الرجل منهم فيقول : من أنت ؟ فأقول : أبو هريرة. فيقول : ومَنْ أبو هريرة ؟ أقول : أنا. يقول : ومَنْ أنتَ ؟ فهم في نميمة وخديعةٍ وسرقاتٍ وغدرٍ وجحودٍ للنعمة وقلّةِ وفاء. إنما كان لي شأنٌ مع غيرهم.

ثم قال :

إنه يا كهلان إذا كره المرءُ الحصْرَ طلب كثرةَ اليمّ واشتاق العدد. خرجتُ أريدهم على البناء وأن يتعاونوا ويطلبوا الشدّةَ والبأس. فقلت : رحيلُكم فرارُ الجبان. ألا تستحون أن تكونوا كالرياح. ثم نظرتُ فإذا هم في سنة شديدة متخاذلون متآكِلون، وعلى ذلك يُصلّون ويدْعون الاستسقاءَ وربَّهم، ويسبّحون أسماءه الحسنى. فقلتُ : ابنُ آدم يقتضي الرحمة. ودعوتهم إلى جنّات ووديان وأعناب مهدَّلةٍ من لؤلؤ ومرجان وتين وتفاح ورمان وماءٍ مُستَراح وريحان. وقلت : كلوا واشربوا. فلما شبعوا قمتُ فقلت : أطابتْ لكم ؟ فقال قائلهم : يا أبا هريرة جُعنا. وقالوا : دعانا داعي الرحيل. قلت : كأنهم مثلي، لكن هيهات. ثم خرجتُ بهم إلى صحراء بيداء سماؤُها خلاء. فتاهوا بها وصرفوا بأنيابهم واستحال الطعام

فتآكلوا حتى ذهب أكثرُهم وبقي نَفْر منهم صاحوا : يا أبا هريرةِ طعامُنا زقّوم. ولم يعمد أحدهم لأخيه فيأكُلَه أو كرهوه وقالوا : غيرُك لا يغنيك من جوعٍ. ثم عمدوا إلى أنفسهم فنهشوا أيديهم وأرجلهم نهشاً حتى ذهبت أفواههم وانيابهم بأجسادهم جميعاً كالنار تأكل النار. ثم قامت هامهم فهي إلى اليوم في التيه هناك يُسْمَع لها كحفيف الحيّة وكنقيق الضفادع ليلاً وتضوُّرِ الذئاب نهاراً. قلت وارتعدت : لا يجدون في فَنَائهم ما لم يجدوا في الحياة.

وقلت : إنه لا يَشْبَع مَنْ رُوحه الجوع.

* *

ثم قلت : لعلي أجد في بعض الناس مكتفياً لا يزدادُ جوعُه للطعام وصداه للشراب. فعدت فأقبلْتُ على أحياءِ أخرى ذليلةٍ مستكينةٍ عليها أميرٌ عُرُدٌّ مستبدّ. فدعوتهم إلى نخلٍ معاجيلَ كارعاتٍ وأنهار جارياتٍ وأفنان وظلال وإطلاق حال وخيراتٍ جزال. فلما أمرعوا قمتُ فقلتُ : أطابتْ لكم ؟ فصاحوا كلهم : قد أمرعنا وطاب المُقام. وتوسدوا الظلال فناموا فقلت : كذا أنتم والله، لا تعرفون إلا الإسلام. وأنكرْتُه فصحتُ : أيها الملأ اسمعوا. إني وجدتكم كالكلاب على جثة عفنة،

تأكلونها نظراً وتتلمّضون لها شفاهاً ولا يقربها أحدكم إلا ذهبت به أنياب سيِّدِه أو أخيه. وكنتم في شدَّةٍ فأخرجْتُكم منها وجئتُ بكم هاته الجنات والوديان. فرأيتكم عليها كمثل شيخٍ ذي وقار على يهودية عجوز كأنها الإثم أريد فلم يُدْرَك، تحدِّثُه وتسقيه وفي عينيها رحمةُ الشيطان لآدم. تكتفون بالصدَقات وتنامون. والنعمة لا تدوم بالعطاء. وما أهلٌ لنعمةٍ مَنْ كان رخا. أفأنتم راضون.

هاته الأرض نحن خَلَقْناها. وهاته السماء نحن نَصبْنا عمادَها فأقمْناها. فهل ملكتُمْ من خيراتها شيئاً ؟ - لقد قالوا عنكم : ليس لهم إلا جَزْلة من رغيف ولعْبة تلهيهم كالصبيان. وحَجَبوا الشمسَ وفيها لكم نورٌ به تهتدون، وأمسكوا العيون وفيها لكم حياةٌ، وذبحوا عنكم البقرةَ الصفراء. وقالوا : ما يولد منكم اليوم، غداً نأكلُ جهدَه ونمتصُّ دمَه. وما حرثتم اليوم، إلى أفواهنا من الساعة سنابِلُه. وقالوا : نساؤكم لنا إمَاء وأرْواحُكم مَرْعى أيّها الضعفاء. ثم ألقوا لكم بعظام مقشَّراتٍ هزال. فجثَوْتُم على الرُّكَب تُصلّون. وقلتم : طاعةً وحمداً يا أولي الأمر فينا. فحشروكم فألْقوكم في الأصفاد. أفأنتم راضون ؟ أما آن أن ترتَفِعوا إلى الشدّة والبأسِ ؟ ألا تُوقِدونها حمراءَ ليس يردُّها جان ولا إنس؟

ولم أزل بهم حتى رأينا الجبال من حضرموت والسّراة إلى طور سنا سارَتْ وعلى رؤوسِها السُّحُبُ وسبيلُها فلقُ البرق، فاستدارتْ في السماءِ دويّا وانشقّتْ وانفطرتْ فتطايرتْ قِطعاً كالرعد كأنَّها تريد السماءَ أن تجعلها أشلاءً. ورُجَّتْ بنا الدنيا فإذا نحن كتائبُ وقد أزفَّتْ بنا السيوفُ زفّا. وفِضْنا أمواجاً مُرْعِدةً على الأنجاد والأغوار. وانتشرنا كالليل فوقعْنا على الشام وأثَرْنا بتهامةَ نَقْعاً وأصبْنا اليمَنَ وامتدَدْنا إلى العَرُوض وعِثْنا حتى تركْناها دماءً. وكدْنا أن نطمس كلَّ حيّ فلا نبقي ولا نذر.

* *

ووجدتُ في الفعل كمثل سكرة الخَمْر وحسبْتُه من العدد وخِصْب الكثرة.

* *

ثم أغرنا يوماً فقلتُ : أغيروا ولا أقودكم. فأغاروا فانهزموا. فهم كمثل قوم تقول : ابْتَنُوا. فيقولون : نُحبُّ أن تنفخَ في البناء وأن تقولَ ما نبني. فتقول : كسِّروا الجبالَ وأَقيموا القصر والصرح. فلا يقدرون ويقولون : إنّا وجدنا أنفسنا عُمْياً كساعِدِ المقطوعةِ يدُه. أفلا تجْعَلُ

يـدك مـع أيدينـا ؟ فتجْعَـلُ فيبنـون شيئاً ثـم يُعيُّـون. فهـم كأعجاز نخلٍ هاوية. فلمّا خاروا همَمْتُ أن أفعل بهم مـا فعل أبو رغال بقومـه. ثـم قلـت : إلى أيـن أيتهـا الشـدّة الكاذبة ؟ وانقضى نَحْبُ عزمي فصِحْـتُ : دعونـي أيّتهـا الأجساد ليس لها روحٌ غيرُ ما سَلبْن من روحـي. وبقيـتُ وحدي على جَهْدي وتَوْقي.

هـذه يـا كهـلان قصـةُ الطـالب الكـثرة. جئتُهـم فسألتهم روحاً فإذا هم أفرغ مـن نفخـة إسـرافيل وإذا أنـا في وحشَة القطرة من النّدى تُغَنّـي علـى الغصـن صباحـاً. وها أنا على صَدَاي. أسمعُ حفيفَ الحيّة ونقيق الضفـادع ليلاً وتضوُّرَ الذئاب نهاراً.

قلـت : وعـواءَ الكلـب يـا أبـا هريـرة أيضـاً، ليـلاً ونهاراً.

فقال : نعم وعواء الكلب أيضاً ليـلاً ونهـاراً، حتـى بعد موته وعظامُه رميم، وفاءً لا يعرفه الإنسان.

ثم قام أبو هريرة فأخذ عصـاه وقـال : ارحمْهُـمُ يـا كهلان ولا تُؤْمِنْ بهم. السلام عليك يا حبيبي.

وانطلق فكأنّي به ضمَّهُ الأبد.

حديث الجماعة والوحشة

حدث هشام بن حارثة عن أبي عبيدة قال :

افتقدْنا أبا هريرة في بعض دهره أمداً طويلاً وانقطعت عنا أخباره، حتى ساء ظنّنا بمصيره، وقلنا : إنْ كانت ألمَّتْ به وفاتُه فيرحمه الله. وكنا نتذاكره وترق قلوبنا ونجده في قرارة أنفسنا أُنْساً حاضراً وإن ضاع شخصه. وكان كثيراً ما يقول لنا في خير ساعات عشرتنا وحال انبساطه للدنيا : إنما بهذا الأُنس وهذه الألفة والمحبة صوّر اللهُ الإِنْسَ إنساً ومتعة.

ومرّت أحقاب. ثم إذا هو عاد من غيبتِه الطويلة وتيهه في أحياء العرب، فطلع علينا أشعثَ مغباراً قاسيَ الوجه أليماً، حتى كدنا لا نعرفه. فعطفنا عليه نسأله في أمره وخافية ما ظهر لنا من بُؤسه ويأسه. فيقول أحدنا : يا أبا هريرة من أين عليك كلُّ هذا ؟ لقد امتلأت قلوبنا شفقةً عليك ورقّة. فيصيح فينا ويلوي : إليكم عنّي يا أبناءَ النُّكر يا بني الإنسان، إن شفقتكم لعنة. والله لقد عاشرت واستأنست أشباهَكم كثيراً، وحسبت أن في العشرة سعةَ النفس واليُمنَ والنعمة، فما كان منه إلا خلاءُ الخيبة

ووحشة الوحدة، وارتدَّتْ إليّ نفسي ضيّقةً حسيرة، وضلّ عنّي كياني. وإنَّ ذلك لهو القنوط الأشقى : أنْ تُغْرِيَ عشرةُ الجماعة بظاهر البركة والطهر والكثرة، فتنكشف شرًّا ونجاسة وعُقماً وشقاوةَ وحدة. كإغراء الآل في قيعة.

وكان يقول وهو يختلج كأنما أخذته الغصّة.

قال أبو عبيدة : ولم يزل أبو هريرة من ذلك العهد كالنافر من الناس، لم نرَ له قط بعدها عطفة. فكأنّه مات في باطنه بعضُ ما يكون به الإنسان إنساناً أو عميَتْ بصيرة. وكان ذلك أول انحداره إلى نحبه.


حديث العمى

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾
(قــرآن)

حدث أبو إسحاق عمرو بن زيادة السعدي قال :

خرج أبو هريرة مُشرِّقاً. فضـرب فـي الأرض زمنـاً. ثمَّ ردَّتْه علينا بعضُ قوافل الغرب كثيرَ الغبار فانيَ العصـا. فسألْناه في رحلته فابتسـم. وقـال : لـو كنتـم عشـتُم فـي مستقبل الدهر لقرأتم ما سيكتبه ابن بطوطة من خرافـات الصبيـان. وكـان يـقـول : لقد مـاتَتْ الجهـاتُ السـتُّ. أو يـقـول : مـن ضـاعـتْ قبلـتُـه فليَـسِرْ ولا يطلُـبْ شـرقاً ولا غرباً.

فكأنّما ضاقتْ عنه الدنيا وفاض عنها أو وقع عليهـا فأفْناها.


حدیثی الحمل

حدث حرب بن سليمان قال :

جاءت على أبي هريرة أيامٌ كان يُسْألُ : يا أبا هريرة حدِّثْ. فلا يكون منه إلا أن يقول فكأنّ لكلامه ثقلاً يُعيي : لقد ضاع عنّي وعجز الكلامُ. فهو يومئذ أمْلأُ فأعظمُ وأبدعُ ما يُرَى واجلٌ.

ولم يزل كذلك حتى خرجَ ففقدناه شهوراً.

حديث الغيبة تطلبُ فلا تدرك



"فقد عرفت أن سعادة النفس و كمالها
تنتقش بحقائق الأمور الإلاهية وتتحد بها
حتى كأنها هي..."

(الغزالي)

حدث مَكين بن قيْمة السعدي قال : حدثني هشام بن أبي صفرة الهذلي قال :

كانت ظُلْمَةُ الهذلية من راهبات دَيْر العذارى. تنصّر أبوها في بعض عمره فنشأتْ على النصرانية. وكانت مع حرّ جمالها نَفوراً شَروداً، تأبى الأُنوثة وتتصنّع طبائع الرجال. فلما بلغَتْ من السن ما يطغى فيه الدمُ ويفيضُ الماء، تمرَّدَتْ فترهَّبَتْ ودخلتْ دَيْرَ العذارى. فذهب لها به ثلاث سنوات. فهي به إذ نزل بهم أبو هريرة. فأقام فيهم زمناً. ثم انصرفا معاً وقد ارتدَّتْ وفجرت فأمعنتْ في ذلك. ولم يكن فجور كفجورها نيةً ومعنى. وكانت تقول : فجوري من الطاعة والإذعان.

آمنت من يوم آمنت بالجسد وكفرت بالروح ثم أسنَّتْ وفنِيت. فاشترتْ تيساً، وكانت تقول : أرتاح لنبيبه.

* *

قال : قال : حدثتني ظلمة قالت :

أول عهدي بأبي هريرة يومَ طرقَ علينا بالديْر. وكان قليلاً من يطرق علينا لمنعةِ الجبل وشدّة الديْر وعُسْره وانفصاله عن الأرض - قال : تريد ديْر العذارى. وهو الذي على الجبل فوق أَثَايَةِ العَرْج يراه الحاجُّ في طريقهم ولا يبْلغه إلا النسور، ولا يعلم أحد كيف يرتقي إليه رهبانُه ولا كيف ارتقى إليه أبو هريرة ولا ظُلْمة - قالت : وكنتُ صاحبةَ المفتاح. ففتحْتُ له وسألْته ما حاجته. قال : حاجة الفارِّ الملتجئ. فحسبتُه متزهّداً مترهِّباً. فقال وأشار إلى ظلّه : هروبي من هذا. فرأيتُه يُلوِّح إلى ذنوب اعتلقتْ به. فقلت : إن كنتَ تطلُب محْوَها فادخلْ. فدخل وتقدمته إلى رأس الدير.

ونحن بدهليز الديْر إذ قال، وقد رأى مِسْبَحَتي وتسبيحي : في كم تسبيحة تعمى العين ؟ وكنتُ نسيتُ النورَ وعينيَّ لشدّة ما كنت أصرفهما إلى الغيب. فلما سمعتُ كلامه ثنيْتُ بصري إليه. فإذا هو من أوضح

وأضوى وأحسن مَنْ رأيتُ عيناً، وإذا عينه أشدُّ ما رأيتُ شوقاً إلى ما تراه غيرُها من العيون، فكأنّها تُنْشئ مَرْئِيَّها إنشاءً وكأنّ روحَه البصَرُ. وكانت مِشْيَتُه لا تكاد تستقيم كأنَّ به خمراً أو نَصَباً. فقلت : ما بك ؟ قال : سؤالٌ أطلُبُ جوابَه. أريد أن أعرف أيهما أصدق وجوداً الله أم الشيطان. فقلت واستغفرت : استغفرْ ربَّكَ يا هذا وطهّر نفسك من الدنيا. فصاح : لا تستغفري ولستُ بمُستغفر. أريد أن أعرف أنا خالقُ الله أم الله خالقي. وأردت أن أُمسكه عن كفره فأبى. وسِرْنا على شبيه بذلك حتى وقفْتُ به عند رأس الدير. فأخبرتُه بما كان من أمره. فأقبل عليه يسأله. فكان أبو هريرة ينظر إلينا نظرة غريبةً ولا يجيب. ثم قال : الرهبانُ أينسَون ويموتون عن أنفسهم ؟ قال الرأس : نعم. ولقد نسي المسيحُ من قبلنا. إن كنتَ تطلب لدائك دواءً فأنتَ أخونا.

ثم أحْمَلَنيه الرأس أُعَلِّمُهُ وأُروّضه. فانصرفتُ به يرمي عن جسده ثيابَ أهل الدنيا. فوجدت لثيابه ريحاً كريح الدنيا هزّت نفسي. وكأنما أدركها أبو هريرة مني فقال : ألا تُذَكِّرُكِ إبلَ الحيّ تكون ضِباعاً ؟ ممَّن أنتِ ؟ هذا أنفُكِ يَرْمَع. وكان كذلك. فكرهْتُ أن أُجيبه. ثم

لبس الصوفَ ومكث فينا سِتَّةَ أشهُرٍ يكدّ نفسَه في رهبنتنا. فلم ينزل من الدير إلا بي.

قالت ظُلمة :

وكنتُ أختَلي به كلَّ ليلةٍ في محراب أُعلّمُه الإخلاصَ وأعلّمُه الأدعية. فأنا به أوّلَ ليلةٍ إذ أقبل عليَّ وأخذ بيدي وقال : هل بَلَغْتِ من الصلاح ما تحملين معه فتلدين ولا فحل ؟ فنفضْتُ يده واقشعرَّ دمي. قال : إن لم يكن فالصلوات أقلُّ من الخمر جدوى. كيف تتخلّصون من الأجساد والأرواح ؟ قلت : نمزِّقُها تمزيقاً حتى ننسى الألم. وأما الروح ففي الله والمسيح فناؤُها. وكان من طريقتهم تعذيب الجسد حتى يفنى. ثم قمتُ فأتيتُه بسوط. فدفعه وقال : بيدي لا بهذا. وكنت أقول : دم المسيح ولحمه يمحوان ذنوب المذنبين. فيقول : ألا سبيل إلى تعليمي ما يُنْسِي ؟ ألا سبيل إلى غير المعقول ؟ علميني الحمل والولادة وسرّ توارث الأرواح أو غنّيني وأَريحيني. أليس فيكم مَنْ يحذق صنْعَ الأصوات تُحْضِر الآلهةَ وتكسِّر الزمانَ وتُشيعُ المحدود. فأقول : اللهم ارحمْه. ثم علمتُه دعاءَ ليلته ودخلتُ غرفتي وبكيت إلى فجري.

ولما أصبحْنا جئتُ الصلاةَ فإذا أبو هريرة قد شقّ لحْمَه بظفره، فهي على جسده كالخيوط الحمراء، وصوفُه مضرَّجَة كجلد السليخة. ثم اختفى عنا وخلا بمحرابه. فبقي به شهرين أو أكثر لا ينفذ إليه بصيص من النور. وكنت أذهب إليه بطعامه فلا يفتح لي باب محرابه ويقول : ضعيه على الباب. فأضعُه وأنصرف وأعود إليه بعد ذلك فإذا هو يصوم اليومين والثلاثة لا يطعم ولا يشرب حتى خشِيتُ عليه. وصرْتُ بعده كالخاويةِ القفْر وبكيْتُ كثيراً. ثم أنكرْتُ ذلك وتمرَّدْتُ فخلوْتُ أياماً بمحرابي، وبكيتُ شوقاً ودعوت خشيةً ولعنتُ الشيطانَ وأبا هريرة، وقلتُ : لا يغلبني. ثم لم يلبث أن وهن عزمي وكرهْتُ لياليّ يذهب بسكونها أبو هريرة. فخرجتُ من معزلي. فكنتُ أجيء باب محرابه في جوف الليل وأقنع بنَفَسِه أسمعه كنَفَسِ الريح الحسرى أو بنبَرات بكائه أسمعُها كالدلو. فأبكي ويخفق قلبي ثم لا يطيب منامي.

ثم خرج إلينا فجانَبْتُه. وكان كالذاهب البال، لا يكلّم أحداً ولا يسألُ عن أحد، ويُكْثِرُ من الجلوس في مقبرة الدير. ولم أصبر عنه فأتيْتُه، فقال : هل نسيتِني ؟ قلتُ : لم أستطع. قال : وتطمعين بالموت. قلتُ : وهل

أنستْك العزلـةُ ؟ فابتســم وقـال فـإذا ابتسـامتُه فـي وجهـه الناحل الشاحب كالفجر الطاهر : لا أدري. لعلي نســيتُ الألمَ. أما اللذةُ فلا أدري. فكأنه أثبت فيَّ سهماً. فـألقيتُ بنفْسي وكدْتُ أقعُ على وجهي، لولا أنه أقامني واحتملني إلى محرابي، وقد غُلِبْتُ غلبةً لم يكن لي بعدها شـدةٌ ولا عزمٌ. فلما أفقتُ إذا هو على رأسي يقول : كذا المـرأة لا تكون إلا واهنـاً مِقْطـاعَ الجَهْـد. فـإذا همّـت أو اشـتدتْ بعض يوم إذا هي رماد. ثم بقينـا أيامـاً بمحرابـي، والديْـرُ يحسبنا نتعبد ونبتهل وإنما كُنّا فـي الشـيطان. وكـان أبـو هريرة يقـول : الآن علمْـتُ وعلمْـتِ أن اللـذة لا تُغْلَـب. فـسألتُه : أو كانتْ فيّ منذ الصغـر ؟ قـال : نعـم وفـيَّ. قلت : وقد كرهتُها لما فيها من تواضُـعٍ إلـى أمثـالكَ مـن الخلق. وكنتُ من أيّام تيقُّظي إلى محاسني ونعومةِ لحمي أدفع الجودَ بها على الرجال والوقوعَ تحتهم والاستكـانـة إليهم. فكنتُ أتنـاسـاهـا وأنفيهـا حتـى جـاء أبـو هريـرة وقال : إنه لا يتناسى الجسدَ إنسانٌ إلا أكلتْـه الخيـالات. وسألني : هل وجدتِ في تعبُّـدكِ امتـلاءً ؟ إذ ذاك آمنـتُ بإنسانيتي ووجدتُ من حياتي مَلْـأً لم أجده قبلَه واتسـعْـتُ حتـى علـوْتُ حيـاتي، وكنــتُ خاويـةً ذليلـةً مسـتكينةً مستضعفة.

وكانت لنا أيام.

* *

ثم أهْمَلَنــي فكـان لا يـأتيني إلا كـالمُرْغَم الكـاره. فبقيتُ أبكي ويطول بكـائي وكـان قبْـلُ لربّـي - إلـى أن اعتزلْنا جميعاً عزلةً ثانية، وبقــي أياماً لا يُسْمَع ولا يُـرى ولا يَطعـم ولا يَشرب. فلما اعتــزل دعـاني رأسُ الديـر فقال : احذري يا ظُلمة أن يُهْبطكِ الأرضَ. فزادني ذلــك وحشةً على وحشتي وشوْقاً على شوقي. ولكنـي كتمْـتُ ضلالي وإثمي وأردتُ أن أبْلُو نفسي ودعوتُ صلاتـي أن تُعاوِدني وربّي أن يـبرز لـي. فبقيـتُ كذلـك أيامـاً أبتهـل وأصلّي مُتَبَتّلَةً نازعةً عن غوايتي مُنيبةً إلى الله. فلم يُجْدِني ذلك أكثرَ ممّـا يُجـدي الطـاويَ مضـغُ الحصـى. وبَقيـتُ خاويـةً فارغـةً وقـد هـوى ربّـي، أُصلّــي فــأجد صلاتــي كالشَّهْدةِ الهِفّ، وأدعـو فـإذا جوارحـي ترتعـد وتختلـج، كأنّ أبا هريرة قد لبسني وخلفَ اللّـهَ على قلبي.

ثم خرج من معزله. وخَرَجْتُ فجئتُه فـإذا هـو فـاتِرُ الجسم شـاحبُ الوجـه منهـوك سـاهم مدنـف. فجزعْـتُ وقلتُ : وما كــان جــزاء هـذا ؟ فـأخذني إلـى محرابــي وقال : إني أقصّ عليكِ يا ظلمة الغَيْبَةَ تُطلَب فـلا تُـدرَك.

وكانت نفسه تعوي كالذئب، ولكنّ كلامه كالريحان تذروه الريح فيمُوج ويفوح. وقال : إنه يا ظلمة إذا أَقْوَتِ السماواتُ انْهالتْ على الظهر. قلتُ : حدثني عن الإيمان. فأطرق ساعةً كالمُصيخ إلى ليلةٍ من ليالي الصيف هادئةٍ قمراء خالية. ثم قال : نعم...

* *

كنتُ يا ظلمة أرى المؤمن مُرْتاحاً كاطمئنان الجمال تطوي المراحل طيّا ولا نَصَبٌ يبدو ولا شكوى ولاَ عصيان. فأَشْتَهي أن أكون مثلَه وأن أعضد هذه الحيرَةَ من قلبي كما تُعضَد النخلُ العقيم. وكنتُ ممّن ذهب إيمانه فجاءتْه حيرتُه. وليس سواها خليفةً للّه في قلوب الناس. فجئْتُ هذا الديْر وقلتُ : لعلّي أَرُوض النفسَ على الإيمان.

وقد انتهى اليوم جهادي وعلمتُ أن الآلهة لا تُقام إذا هَوَتْ.

* *

قالت ظلمة : فقلتُ : وهؤلاء يا أبا هريرة ؟ أعني الرهبان. قال : إنّهم خليطٌ كسُوَيْقاء المرَق.

فيهم الهوائيُّون عَبَدةُ الخيالات أصحاب الأحلام. الذين يريدون الأرض أن ترتفع إلى السماء والحقيقة إلى الوهم والذاتَ إلى الظل. وقد حدثني بعضهم يوماً فقال: أَنْظُرُ إلى السماء فأراها نوراً والأرضِ فأراها ماء ونفسي فأراها شعاعاً. ويقول النجوم إخوتي وزهر الأرض وسادي والشمس طعامي. هل أَكَلْتَ من الشمس؟ أنا طائرٌ أو صخرٌ أو سحاب في السماء. فقلتُ له: فإذا تيقّظتَ؟ قال: لا أدري في أي بلد وقعت وليس من همّي. وطلبتُ مثل أحلامه، فإذا صاحب الأحلام إذا ذهبتْ به قَتَلَ الدنيا وانقطع إلى الفوق فليس في الكون غيره وإِنْ هو إلا خيال. وليس أكره من الخيال عندي.

وفيهم الأرضيُّ يلعن ربّه أَنْ ليس من طين مثله، ويطلب المغالطة كالذئب يتصنّع جزّة الغنم. فكأنه يقول: يا رب نزعْتُ طيني فانزَعْ روحانيتك. ولستُ ممن يحب الطين أن يرتد إليه كل شيء.

وفيهم يا ظلمة الأعرجُ الضعيف النفس، يحبُّ الكاملَ السالم ويُكْبِره فيعبده، ويكره ضعف نفسه فيريد ربَّه أن يُقرضه القوة.

وفيهم صاحب الشوق يحن إلى ما يوسوس في صدره من ذكرى القِدَم.

وفيهم يا ظلمة الكَفَرة مثلك إيمانهم خدعة. وقد جهدوا أن يعلّموني إيمانهم. ثمّ نظرت إليهم يركعون ويسجدون للّه ويكثرون من ذكره ويجعلونه في السماء يرفعون إليها الأبصار، فلا يذهب ذلك بشيء من كفرهم. فإن أكثرَهم يلحون في ذكر الله إلحاحَ الشاك أو المنكر. وبعضاً منهم يلحون في ذلك إكثارَ مَنْ ذَكَر الله ولمّا يعرفْه فلمّا خاف أن يجده سكن اللسان. إنهم يَخْلُقون ما يَعبُدون. ويطلبون الغَيْبة. ولكنهم لم ينجوا من أنفسهم. بل تفرد بهم شيطان الروح وماتوا ميتة غريبة. أحياءٌ في بواطنهم نيامٌ عن الدنيا، قد اتسعت نفوسهم فغطّتْ عليها. أولئك قوم تاهتْ قلوبهم وأعينهم وغرَّهُم ما غَرّضني من أمر البراهمة بالهند، يظلّ الرجل منهم عامّةَ دهره يتعبَّدُ حَرّا أو قَرّا ولا يُغيّر من ثيابه ولا يحرّك من طرفه، كأنما ذهبت حياته وذهب جسده، فكأنه الفناء أو الاطمئنان الكامل، وليس كذلك. كذا رهبان الدير سُكونٌ ولا اطمئنان.

وقد ارتضْتُ رياضتهم وتلوت الأدعية وصليتُ الصلوات، وأمسكت نفسي أنْ تكابر الله. فلما انتهيت فقدت نفسي. ففرحْتُ وقلت : فَنيَتْ في ربّي. وقلتُ هو الله. ثم طلبتُها فإذا هي حاضرة لم تغِبْ، وإنما انقلب

الشكل؛ وإذا روحي لغوٌ من الأناجيل وعقلي نسيجٌ من الحروف وقلبي من الظلمات وربّي وهمٌ من ذلك وليد؛ وإذا على لساني لعنة ذي المَسْغَبَة يُطْعَم الزقّوم.

ونظرت إليهم على اختلاف مذاهبهم، فرأيتهم يخدعون أنفسهم أو لا يعلمون ما يفعلون، أو يكونون أدخلَ من الملائكة في الروح يطلبون محلَّ الآلهة ويقولون : لقد تألّه المسيح من قبلنا، - وهم على ذلك لا يتخلّصون من الحاجة تُنْزلهم إلى الغائط، ولا من الطعام يُحرِّك فكوكَهم كالإبل تجترّ، ولا من الشهوة يركَب بعضُهم بعضاً، فقلت : سحقاً لآلهة كالقردة أو كالحمير. وقلتُ : سحقاً لرهبنة لا تكون إلا تألّهاً مستحيلاً أو غروراً مؤلما.

ثم خرجْتُ عنهم وعنها.

قالت ظلمة : فقلت : وقد أخرجتني. فإذا للجسد مسّ الجديد المُعاد الخلق. فلم يقل شيئاً وضمني إليه.

* *

ثم هبطنا الأرض.

حديث الهوى

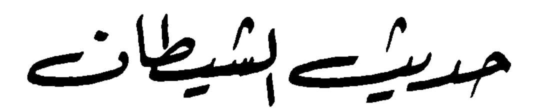
" إذا كـان الـمـوت راصـداً فـالطـمـأنينـة حمق "
(ابن عبد ربه)

" ... وأمصابي من غدٍ أن أقبلا
ورفاتي هامةٌ تعوي بقاع "
(عمر الخيّام)

حدث حرب بن سليمان قال :

إنّا لعلى بعض طريق الحاجّ نقضي مناسك الحج - وفينا أبو هريرة، وهو يومئذ من عمـره فـي مطلـع الفجـر، يُصلّي فكأنّما يلهو، ويدعو فكأنّمـا يُغنّـي - إذ مـرّتْ بنـا جنازة. فقمنا لها فإذا أبو هريرة قد أرسَلَ ضحكةً آذن بها الناس جميعاً. فأخذتُه من طرف ثوبه. فإذا هو لا يتمـالك عنها، فهي تهزّه هزّا.

ولم يُتِمَّ الحج إلا وهو كالساهي عمّا يفعل.



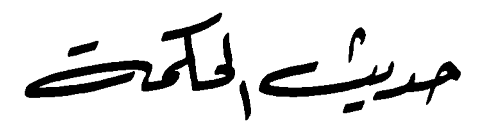


" ما من أحد إلا وله شيطان ... "

(حديث نبوي)

حدث ابن مسلمة السعدي قال :

كان أبو هريرة كالماء يجري. لم نقِفْ له في حياته على وقفةٍ قط. كالمستعدّ إلى الرحيل لا ينقضي عنه الرحيلُ.


حديث الحكمة

" اعلمْ أن اليقظة التي هي لنا بالحس هي النوم،
والحلم الذي لنا بالفعل هي اليقظة "
(أبو حيان التوحيدي)

حدث أبو هريرة قال :

تهت في بعض حياتي وضللتُ السبيل. فكنتُ أضرب في الطرق تطرحني هذه إلى تلك ولا غايةً أطلُب ولا أملَ يُحْيي. وكان قد بدأني الشك فكنت أقبل على الشيء أو الأمر فلا يملكني إلا ساعة. ثم يغور همّي فيه وتنصرف نفسي إلى غيره. ثم ازداد فكنت لا أكاد أَهُمّ بالشيء حتى يسقط همّي، فكأنَّ العزم ذوْبٌ شتات لا يجتمع لي. إلى أن أصبحت أهُمّ بالشيء وعكسه والفعل والقعود عنه همّا واحداً، وأشتهي لو اتفق لي النورُ والظلمة أو النوم واليقظة أو الشك واليقين معاً. وبقيت كذلك أياماً طوالاً لا أعلم ما أصنع حتى كدت أجن. ثم مرّت الأيام فاستقرَّ واستأنَسْتُ. وقلت : ما الدنيا ما هي

حتى تذهب أنفاسنا فيها ؟ وما الآخرة ما هي حتى تذهب فيها دنيانا ؟ ثم أعمل فلا يكون لإنسٍ ولا إلهٍ ولا جانٍ ولا يكون كفراً ولا إيماناً ولا صلاحاً ولا فساداً. وقلتً : لم يبق إلا أن أطلب ذاتي مُطْلَقاً وماهيتي وأُعْرِض عن المحمول واللاحِق والعارض. وكذلك ذهبَتْ ساعتي في ساعتي وعزمي في عزمي، كالنور يأكل النور أو كالشمع يضيء فيحترق. حتى لقد ظننْتُ أن الناس لا يجدون لي أثراً إذا متّ. وألحّ عليّ داعي الأوساع إلحاحاً، واقتضاني الصفاء.

* *

فلما تطهّرْتُ أقبلْتُ على البحر.

فهالني البحرُ.

* *

وإني لفوق البحر يوماً على جبل مشرف إذ جاء رجل كالناسك فجلس بقربي وهو مطرق ساكن كالبيت الحرام. فأقبلت عليه أتأمله فإذا هو في عظمة الفيل وعليه سمة الحكمة والجلال. وهو في ذلك كله ولا يقول شيئاً. ومضت لنا ساعة ثم قلت : إن كنتَ ناسكاً فالسلام عليك. قال : لسْتُ. وعليك السلام. ما الذي لك في البحر ؟ قلت : شيءٌ من الروعة. قال : كذا عبيد

الله جميعاً، على خسة البحر. أننزل فندخل الماء ؟ فنشطْتُ وقام فسلك بي مُنْحدَراً بين الصخور الهاوية كأنه السراط لم أر مثله مُنْحدَراً شديداً. ونزلنا إلى الماء فإذا الرجل يغوص فيسير في الماء غَوْراً فينساب على القعر كالثعبان ثم يطفو كالذكرى، وشعَرُ رأسه يسيل على وجهه. ثم يتوسّد الماء ويضطجع على جنبه ويندفع يطوي الأمواج طياً فهو أمهر مَنْ عرفْتُ سبْحاً. وأخذ من أمره مأخذه ثم عاد إليَّ فقال : ألك في أن أعلّمك ؟ قلت : نعم. على قِصَر أنفاسي وقلة بَلائي في الماء. قال : لا بأس عليك من ذلك. ثم ضرب إلى عضدي وساعدي وقال : هذا محال أن يأخذه الشك. وكان يقول : السباحة أن تتوق إلى البحر ويتوق إليك. ثم لم يزل بي حتى علِمْتُ الماء كيف يُكثر القوة والنفس ويوقّع في الأعضاء رقصاً. وكنا نغوص فنسير معاً فكأنّنا في سعة البحر.

فلا والله ما رأيتُ مثلَه مَذْهبةً للشلل.

والرجل في ذلك كله لا يحدثني بشيء من أمره ولا يخبرني بشأنه. حتى جاء الخريف وقد طابت لي صحبته.

* *

فلما أخرفنا سألته فقلت : ما خبرك وما شأنك على هذا البحر ؟ قال : شأنٌ كلا شأن. فيم السؤال ؟ إن السؤال من علل الإنسان. أتحب القصص ؟ قلت : نعم. قال : وتفهمها ؟ قلت : لا أدري. قال : فهي قصة الحكمة. وأنا قاصُّها عليك.

كانوا يسمّونني أبا رغال. أما الآن فلا اسم لي. قلت : مررت على قبر بالطائف يقال هو قبر أبي ثقيف أو أبي رغال. قال : نعم. هو قبري وقد مرّ عليه رسول الله. وكانوا يقولون : أنت سيدنا وخليفة الله فينا. فقلت : إنهم جعلوني عليهم ملكاً مُطلَق الفعل. فاللهم أَوْحِ إليّ من روحك. وبقيت في انتظار الوحي فلم ينزل. وتعلّمْتُ الحكمة. قلت : ومن علمكها ؟ قال : امرأةٌ رأيتها في يوم شديد ذي مطر وريح وقد خرجَتْ إلى الهطل حتى امتلأت، فشَعَرُها وثيابها كأنهار عدن. وكانت تضحك كالمصابة العقل. وما كانت إلا التي اهتدت إلى سبيل الحياة. وعلمنيها سِكيرٌ يبكي في ليالي الشتاء. ويقول : هل من خلاص من الحياة ؟ وكان لا يصحو ساعة إلا ذلّ كآدم يوم أُهْبِط الأرض. وعلمتني الكتبُ ما ليس من الحكمة. فلما تعلمْتُ الحكمة جُرْتُ فيهم فعَشَرْتُهم وافترشْتُ نساءَهم وسقيتُهم عَلْقَماً وخنقت

عليهم حتى كأنها نقمة من الله. قال أبو هريرة : فقلت ولمَ فعلْتَ بهم هذا ؟ قال : لأن الوحي لم ينزل ولأني نظرته حتى طار لبّي. وكانوا يقولون : إنه لمجنون. وكنت أقول لِمن يسألني في جوري، ثم أضرب رأسه : إن قوماً يكون فيهم مثلي من الأشرار ولا يقتلونه أو يعقلون يديه ليسوا بأهلٍ لشفقةٍ ولا رحمة. ثم قويتُ واشتد بأسي وقلت : لا حياة في غير الشدة والعنف. فأمرْتُ فضربت أعناق المرضى والضعفاء كلهم والعمي والعرجى والمصابين جميعا. وظننت أني أصيب به صحّة. فلما مثَّلْتُ بهم فسجدوا مؤمنين خاشعين أمْسيْتُ فلم أصبح. وكانت موْتتي الأولى.

* *

وبقيت أياماً بغار حراء فإذا جَوري قائمٌ فيّ يطلب أن يجور عليّ، وخشيت أن أقتل نفسي ظلماً. فقمت فنزلت إليهم.

* *

وجمعتُ حكماءهم وناديت في الملأ أني تُبْت وأرجو أن تُقبلَ التوبة وأنّهم يغفرون لي عسى الله يغفر. وقلت : نخرج الخير من الشر والشر من الخير، أو نمحو

الخير والشر معاً. فإذا هُـمُ عِقـام. وقـالوا : مننْـتَ بحقـن الدما وإسكان الروع. وهو مردود عليـك يـوم الحسـاب. فقلـت : دينكـم كـأنكر صنيـــع اليهـود، حسـابٌ فــي حسـاب. ثـم أمـرْتُ فحلقْـتُ لِحـاهُـم ورؤوسَــهم حتــى صارت كالعُنصل. وقدّمتُ لهمٍ الخمر وقلت : خذوا مـن حكمتي. ففعلوا ثم خرجوا يسفُون الأرض سفّا. فنظـرتُ إليهـم وتفلـتُ. وجـاءني قومــي فقالــوا : إنــك قاطـــع نعمتـنـا ومُـلْـكنا علينـا وإنّـا نراهـم قـاتليك. قلـت : لـو فعلـوه لشـكرتهم وأعظمتهـم. ولكنهـم لا يفعلـون. إنّهـم حَقَارةٌ نِسْوة.

ثـم قلـت : أَجْعَـلُ لهـم أسبوعَ إباحـةٍ فــأنظُر مـا يصنعون وجعلت ذلك فناديت : إنا أبحنا لكـم أعمـالكم سبعة أيام بلياليها. فافعلوا ما تشاؤون. ثم نظرت فإذا هـذا في أرضه يحرث وذلك مقبل علـى تجارتـه ومالـه وآخـر يقتل وينهب على عادته ويسفك، ورأيـت الحكمـاء فـي حكمتهـم يبيعـون منهـا ويـأكلون خبزاً، والمصليـنْ فـــي صلاتهم، والأشرار في شرهم والأخيار في خيـرهم. ولـم أجد إلا رجلاً ضربت إلى البادية فإذا هو وحده. فقلـت : هذا ضالّتي. وأقبلت عليه إقبال الحفي المبتهج وسألته في أمره. فقال : أبحث عن نجم سقط عنـي هنـا ولعلـه غـار

في التراب. فهو مجنون هائم على وجهه. وعلمت أن لكلٍّ منهم محلَّهُ من الحياة وحتى المجانين كمحلّ الكلمة من الأعراب. فكأن سيبويه مدبّر شأنهم. قال أبو هريرة: فقلت ومن هذا ؟ قال : رجل سيخلق ويبتكر النحو - ثم قال : ولم أزل كذلك حتى ذهب إيماني بالناس جميعاً ومعاشرتهم وتقتُ إلى الوحدة الواحدة. وقلت : إنه لا يحسن الفعل إلا مطلقاً محضا. وليس الحبّ حبّا حتى تقتل من تحب وليس الخير خيراً حتى يتبدَّد في نفسه. ولم يبق بَعْدَهم إلا بريّ بأمي. وكانت شديدة الحب لي فأنا أحبها لذلك. وكانت لا تُنكِر عليّ شيئاً من أمري وتقول : أَدعو الله أن تكون مُحِقّا فيما تفعل. فلمّا انحصرتُ فيها جئتها فأردتها فكأنها لم تفهم. ولكنها ماتت في نفسي. فخرجت وقد مُتُّ موتتي الثانية.

فأنا هنا من يوم خروجي.

جئتُ هذا البحر وهاته الجبال التي لا تَرَى فيها إلا صخوراً هاوية على صخور هاوية. وقلت : أكون أو لا أكون. وكانت قبلُ حياتي قبيحة شوهاء لأني لم أحذف زواياها ولم أُهذّب الناتئ فيها ولم أنزع متناقِضَها. فجُرْتُ حتى أفنيتُ الناسَ جميعاً في نفسي وخلوت بها. فخلقْتُ لي سبيلا فأنا عليها ولا قافِلةَ ولا رفيق. فكأني

قد أضعْتُ ظلي واستحال عليّ. ألم ترَ أنّي لا ظل لي. قال أبو هريرة فقلت : لم أَرَ والله. فقال : وقفت يوماً فإذا هو قد تمادى في طريقه كالراحلة تعصيك وتطرحك وتسير، أو كروح الميت. ثم جعل أبو رغال يضحك فيقهقه فأجد منه كالبرد. ثم سكت فقال : فلما ضاع ظلي جئتُ البحر وخلوت إلى الحكمة. وقلت : لا بدّ أن أخرج من تناقضي. فالروح والجسد كالحوت في الماء أو لا يكونان ويُهْلِك أحدهما الآخر. ونظرت فلم أر كاتحاد الجسد والبحر يتمالكان ويتغالبان ويتلاعبان، فيحمل الجسدَ الماءُ ولا يمنُّ عليه، لا كالراح تحمله وتمن عليه وتكرهه وتقضي عليه. وقلت : الحكمة الاعتدال. وقد تمّت لي. قال أبو هريرة فسألته : وما الاعتدال ؟ فقال : اعتدال الحوت أو الموت يا أبا هريرة. وإنه ليس كالحركة الدائمة قاتل ولا كالسكون المحض سعادة وشفاء. فقلت : وما كان منه ؟ قال : أتريد أن ترى ؟ قلت : نعم. قال : هات يدك. ثم أخذني من يدي وذهب بي إلى صخور الجبل فقال : انظرها متدلّيةً في الجو لا تُشَدّ إلى شيء وقد غلَبت تجاذبَ الأجرام كما غلبْتُ الأرضَ بالبحر. فنظرت فلم أر شيئاً. فقلت : أنا لا أرى شيئاً. قال : أنت أعمى يا هذا. أو لا ترى ما نحتُّ عليها من صور وأشكال ؟ هي ما كان مُمْكِناً من الخلق

ثم استحال. انظر. هذا مخلوق تُحْبِله السماءُ ثم لا يكتفي فيحبل ويلد دونها. علة الخلق والولادة. علة الأرض وبنيها. وهذا ألا تراه ؟ إنه جسد ولا صورة وذات ولا صفات، كأنه نجمٌ مات ولمّا ينقطعْ نورُه. هو أنت، هو أنا، مستحيلا. وهذا أيضاً، انظره في خشوعه كأنه العين يغشاها القذى. أنت حمارٌ ليستْ له أذنان. وإنما أردتُ أن تعلم أنك أنا وأنّي أنت وأنّا غيرنا وأن الجنة من نفسك كما كانت نفسك من تراب فصارت طائراً في السماء. وهاته كلها كالمخلوقات التي حبستها بغاري. أتريد أن تراها ؟ قال أبو هريرة : وكان في عينه وهو يقول كمثل نور النبي يُوحَى إليه، فقلت : نعم، وأنا لا أجرُؤُ على الامتناع خشية جنونه. فذهب بي إلى كهفٍ في الجبل مُظلِمٍ ضيّقٍ كساعة شؤم. ووقف بي على بابه وقال : لقد جعلتُ بقصري هذا جماعة من الخدم والجواري الحسان لا آكل منهم أحدا. إنما إذا نفدتْ روحي عمدتُ إلى أحدهم فقتلتُه وتلطختُ بدمه فأنا من خلق جديد. هذا طعام الروح. ألا تنظر إليهم في أغلالهم كالأُسُد ؟ ثم تقدمنا قليلا فنظرت فإذا جرادات كثيرة مشدودة بخيوط حمراء. فقلت : إنها لبديعة الحسن. فجلس يمسح عليها ويقول : إن دماءهم منوطة بالفلكيات لا تقع للنفس الناطقة أو العقل الفعّال إلا من

نور الهيولى. ولو جاز تعدد العلل وانتفت الفاعلة والمادية والصورية والغائبة لكان تعلق النفس بالجسد من تعلق الجرب بالشاة الجربة. لكن الواجب بذاته والواجب بغيره لا يلتقيان إلا ويتناطحان، وهما لا يكافئان الواجب الوجود لما بينهما من فرق في التجريد والإبداع والتدبير. وشرائط الامتناع كشرائط الإمكان بابها واسع كالبحر. قال أبو هريرة : فقلت : لقد مات موْتَته الآخرة. وقلت : نعم. هي أحلامك كالسمك يُصاد فيُوكَلُ الشصُّ وتتّقد مصابيح دجلة والفرات. قلت ذلك مجاراة لجنونه وانطلقت أضحك وانطلق حتى استلقيْنا. ثم قال : أنت مجنون. فارتعْت وانزعجْتُ حتى ارتعدتُ واهتززتُ وخفت أن يكون ذلك حقَّ اليوم أو غد.

فلما خشيت على عقلي قلت : لم يبق إلا أن أطلب النهاية.

وأردت الانصراف فقال : أحب أن تصبر حتى أهديك شيئاً. ثم غاب في الجبل فجاءني بقلم وقرطاس وقال : قد تحتاج إليها يوماً فتجعل عليها خطوطاً ودوائر ونُقطاً في وسطها بياض.

فأخذتُها وانصرفت مُظْلَمَ العقل والقلب.

حديث الجمود

حدث أبو المدائن قال :

جئتُ أبا هريرة ليلةً فإذا هو في جمود الصخرة لا يشكو ولا يستطيع إليه سبيلاً ولا يبكي. فقلت : أوَ كالرحى تدور على قلبها ولا طعام وترحي ؟ قال : إنه يا أبا المدائن ليس في الناس إلا ساهٍ عن أخيه. خرجت ليالي عدةً أهيم على وجهي وأنا أتوسّل إلى كل عابر طريقٍ ألقاه أن يلطمني لطمة تذهب بي فتحْييني، فلم يرحمني ولا أدرَكها مني أحد. حتى ليستحيلُ عليّ في النوم حلمي. فأنا الليلة على ذلك.

ألا قُلْ ويْلٌ للذين يموتون ثم لا يُبْعثون.

قال أبو المدائن : وكان ذلك في آخر أيامه.

حديث البعث الآخر

" إن دائـــي الصـــــدى .... "

(بشار بن برد)

" الفــولاذ يــأبى الســكون والســلام، والنـــار "
" تأبــاه و"بروميتــي" يأبــاه. لأنــه مــا زال لعقـــل "
" الإنســان درجـات عـدة لا بـــدّ لـه مـن ارتقائهـا "
" قبل أن يبلغ الذروة "

(بـويـيــر)

حدث أبو المدائن قال :

جاءني رسولُ أبي هريـرة يومـاً يقـول إنـه يدعونـي لساعته. فأسرعت إليـه وأنـا أفكّـر فـي مـا عجـل بـه إلـى دعوتي وأخاف أن يكون وقع به مـا يُكْـرَه. فلمـا دخلـت عليه رأيته جالساً وقد جعل بين يديه أوراقـاً وأقبـل عليهـا وهو مطرقٌ ساكنٌ كأنه النوءُ يتمخّض رعداً. وكان بيـده قلم همَّ بالأوراق ثم توقّـفَ وقـد ذهـب حِمْلُـه. فسلّمت وجلست فإذا أبـو هريـرة قـد ألقـى القلـم علـى القرطـاس

وصرف وجهَه إليّ فابتسم وقال : كم سنّك ؟ فضحكت وقلت : ألهذا دعوتني ؟ فقال وحرّك رأسه : وددتُ والله لو أني خلوتُ عن العمر وأخذت سِنّي فزرعتُها في ريح الصبا. ألك في يومٍ ليس من الدهر ؟ قلت : ومتى كان الدهر محدوداً فنخرج عنه ؟ قال : لقد كان منذ ذلك اليوم. انظر هذا. وأخذ ورقةً وألقاها إليّ. فإذا عليها خطوط قائمة ودوائرُ ونقطٌ سوداء تكبر وتصغر وفي وسط الورقة بياض ناصع. فقلتُ : أطلسمٌ أم عبثٌ ؟ قال : بل عنق الزمان وقد ضُرِب أو استفهامٌ ولا معنى. فلم أفهم من كلامه شيئاً. ولكني صبرت وقلت : وهذا اليوم ؟ صرفاً للكلام عن غريباته. فقال : نعم. تأتيني غداً قبل الغروب وقد تطهّرْتَ. قلت : أفعل إن شاء الله. ثم قمتُ فسلمت، وعاد إلى أوراقه، وانصرفتُ وأنا حيران.

* *

فلما كان الغد جئتُه في ساعته وأنا طاهر كعادتي قبيل الغروب. فإذا هو قد أسرج فرسين وقام يتوقّعني. فما كدت أدخل وأسلّم حتى استوى على فرسه وهمزه، فقام قيامَ النبل. فركبْتُ وشرعْتُ إثره حتى لحقتُه. فقلت : أين بنا ؟ قال وضحك : إلى مغرب الشمس. انظر إليها وقد

احمرّت وغربَت في عيني. والله لا آسف إلا على مثلها من الدنيا. وأشار إليها وهي على الجبل كالدم المُهراق. فضقت بقوله وقلت : ألا تنتهي ؟ إلى أين ؟ قال : لم أُردْ غير الفسحة والهواءُ يسْودُّ والسماء تلين. ما كان من أمر الدنيا اليوم ؟ قلت : لم يكنْ ما يُذْكَر. قال : ألم تكسبْ مالاً ؟ قلت : بلى بعون الله، كثيرا. فقال : أتعلم أني اشتريْتُ لي ضيعةً أخرى ؟ قلت : على بركة الله ؟ قال : نعم على بركة الله... وأمّا الأولى فقد جعلْتُ فيها مَنْ يُخْبلها حتى تلد وكتبتُها لك. فرأيته مازحاً وما كان كذلك إلا في شطره. فقلت : الحمد لله أَنْ عاد لك من التدبير ما قد يئسْتُ منه. وكان لم يكسِبْ في حياته مالاً قط إلا خرج عنه قبل الدخول. قال : لقد ذهبت لي اليوم فوق الأربعين من السنين وقد آن الرشد. أتذكر يوم التقينا عند حُبابة المغنية وقد دخلْتُ عليكما كَرْها ؟ فقلت : وكنتَ في عربدةٍ لم أَرَ مثلها قط. فقال : وأحببْتُ أن نلتقي عليها فكرهتَ ذلك وأردتَ الباب، فأمسكتُكَ عنوة، وعلا صوتُها فلطمتُها لطمة طوّحَتْها. ثم مزّقتُ ثيابَها وحملتكَ عليها وأخذْتُ معك الفخذ والفم والعينيْن وجعلتُ لكَ الباقي وقلت : افعلْ مثلَ فعْلي. وأقبلتَ على جسدها الأسمر إقبالَ المريدِ النهِمِ، فصحتَ وارتعْتَ

صياحَ ربّات الحجال. قلت : نعم. وقد أراك فكأنه قد أصابك طائف من الجن. فتنهد وقال : وإن كنت إلا في ساعة حكمة. وقد هممت بلحمي مراراً بعدها أريد تمزيقه. أتعلم ما كان من أمرها ؟ قلت : لم أعد إليها بعد يومنا ذاك ولم أطلب والله خبرها. فابتسم أبو هريرة وقال : لأنك تزوجتَ امرأتك بعدها بأيام. لقد قتلتُها وقتلتُ كثيراً غيرها لئلا أقتل نفسي. وقد ذهب والله في الريح هباءً. قلت : إنك لم تفعل هذا. قال : وقد فعلتُه. ثم سكتَ وسكتُّ وأنا أراه يكذبني. ثم قال، وقد نزل به من الفرح كنوبة الحُمّى : لقد خرجنا من الظلمات إلى النور. فقلت وأنا أنظر إلى الليل الغاشي : بل من نور النهار إلى ظلمات الليل. وعثر فرسي حتى كدت أقع على وجهي. فنظرت فإذا نحن قد وصلنا جبلاً حزيزاً صَعودا. فقلت : أوَ تريد بنا شرّا ؟ قال : كلا. إنما أطلب النهاية. وذهب صاعداً وذهبْتُ وأنا لا أكاد أرى أمامي شيئاً لشدة الظلام. وإنما كانت بالأفق الغربي بقايا نور تائهةٌ كأنها الخير في قلب شيطان. وثقل عليّ السير مظلماً فأردتُه على الرجوع فقال وأبى : نحن إلى ذلك بعد ساعة. ثم ضحك وقال : ألا تسمع ظريفةً تحمل عنك مشقّةَ السير. قلت : هاتها. وكان عهدي به لطيفَ

الظرف إذا أراده. قال : أَظْلَمْتُ يوماً فطلبتُ لعبة أو عبثاً أُفَرِّجُ به عنّي. فجمعتُ صحابةً لي على دعوة دعوتهم إليها. وكانوا كلهم من أهل الحكمة والأدب لا يسكنون عن ذكر الآخرة ولا يتبعون الهوى ولا يشربون إلا سترا. فلما حضروا ضربْت لهم ألوان الطعام والنبيذ الجيد. فجعلوا ينظرون إلى النبيذ ولا يجرؤون عليه وهم منكروه عليّ. فقلت : كلكم يشرب فلا حياء في الجماعة. وكنت شربت مع كل واحد منهم على حدة وخلوة، فاستبشروا وتضاحكوا وقال الواحد للآخر : وأنت أيضا، ثم أكلوا وشربوا حتى انقلب كله فرحا. فلما اكتفوا وأثنوا على طعامي وطابخته ونبيذي وساقيته. قلت : والذي ادّخرت لكم خير. فارتمت الأنفس من العيون إلى ذخيرتي. فأشرت إلى الجارية بشيء فقالت : نعم. وانفجرت ضحكاً حتى كادت تكشف الأمر كشفاً ويصحو أصحابي. فزجرتُها فلوَتْ وخرجَتْ. ثم عادت وأوْمأت أَنْ قد تهيأ الأمر. فأخذْتُ أصحابي وهم كأنفاس الريحان وخرجت بهم إلى مجلس الغناء. فقالوا : أقيْنةٌ لا نعرفها ؟ قلت : نعم، ولم تسمعوا والله مثلها. فصاحوا إعجابا. ودخلنا المجلس وقد ضُرِبَت فيه ستارة. فأجلستُهم وقلت : الآن تسمعون. وضربتُ في يدي.

فسمعوا من وراء الستارة صوتاً وغناءً وضرباً روميّا لم يجئ بمثلها أحد قط. ثم سكن الغناء وقامت أصوات أصحابي بالإعجاب. فقلت : ألا تسمعون ؟ فسكتوا فإذا ببغاء من وراء الستارة يحكي كلامَهم أقبح حكاية. فضحكوا فضحك الببغاء ضحكاً مُشوَّهاً كريها. وتكلموا ثانية ففعل بهم مثل فعله الأول، وأنا أنظرهم وأبتسم، حتى غضبوا فغضب الببغاء وأرادوا الانصراف فأراد ذلك. فضحكتُ والله حينئذ حتى استلقيتُ. ثم قلت : اصرفوا ملناس. وكان اسمَ الببغاء. فصرفوه وسكن الغضب والانصراف عن أصحابي. وقالوا : لنا عليك بعد هذه السخرية أن تسمعناها مرة ثانية. يعنون القينة. فقلت : نعم. ثم صفقتُ بيدي فصفّق الببغاء بجناحيه، فسمعوا أحسنَ مما سمعوا قبلاً حتى ذهب بعقولهم وصاحوا كلهم :لقد أغنّتْ غُنّة عجيبة. تخرجها لنا فهي من بنات الجن أو الجَنّة. قلت : بل من بنات الروم، زرقاء العين صفراء الجلد حمراء الشعر كأنها الدنيا. فقاموا كلهم وصرخوا كالواحد : تهبها لي ليلة. قلت : أمّا الآن فلا. ولكم عليّ ذلك كل بدوره، وأبدأ بأكبركم سنّا. وإنما أنتم الآن ناظروها. ثم قمت فأزحتُ الستارة فإذا وراءها الببغاء في قفصه، وجاريةٌ لي عجوزٌ تحسن الضربَ وليس

أنكر من صوتها وكانوا يعرفون ذلك منها فقالوا : وأين روميتنا ؟ قلت : هي ذي. وأشرتُ إلى الببغاء. وكنتُ وقعتُ عليه عند تاجر أخذه من بلاد الروم في بعض قوافله إليها ولم يُقدِّرْ له قدره فباعنيه ثمناً بخساً، على غريب ما كان يحسن من حكاية الأصوات حاضرها وماضيها. فجعلت منه ملهاة في تلك الليلة. فلما قلت ذلك شتمني أصحابي حتى أفحشوا وانصرفوا انصرافاً لم يكن لهم بعده عوْد. وبقيت أعتبر الببغاء.

* *

قال أبو المدائن :

فجعلتُ أضحكِ من قصته مع أصحابه حتى كدتُ أقع ولم أتمالك عن ريحٍ سمعها أبو هريرة. فضحك وقال : انتقض وضوؤك وقد حانت الصلاة. فخجلتُ وأمسكتُ عن الضحك وسكتنا جميعا. ومضت لنا ساعةٌ ثم إذا هاتف يهتف شعراً في صوت ما سمعت أروع منه :

أنا الحق يناديك

أنا الحب يناغيك

أنا الشوق طغى فيك

تعـــالَ علـــى الدّهـــــر　　　تَســـامَ إلـــى سِـــحْري

فـأكـشـفَ عـن سـتـري　　　ضـيـاً كـضـيـا الـفـجـر

يـــروّيـــك مـــن ســـرّي

أنـا الـحـق طـغـى فـيـك

أنـــا الـحـب يـنـاغـيـك

أنـا الـشـوق يـنـاديـك

حـبـيـبـي حـبـيـبَ الأبـدْ　　　تـخـلّـصْ وهـيّـا نَـصِـدْ

عـــلــــومَ الــغــيـــبِ

خـــفـــايـــا الـــربّ

وقُـــــمْ كالريــــــاحْ　　　إذا مــــــا عَلَــــــتْ

مَهـــــبَّ الريــــــاحْ　　　تُعــــــالي الجبـــــل

وَطِـــرْ يـا جـنـــاحْ　　　فـهـــا قـــد بَـــدَتْ

شـــــواطـــــي الأزَلْ

فأسمعُ أبا هريرة وكأنه النار اتقدت أو الله ينـادي في الكون بالبعث :

أيـــا حـق لـبّـيــك

تـبـاركْـتَ لـبّـيــك

حـــبـيـبـي جـلالَـيْـك

أنـــا الآن إلـيــك

تعـــــــال فـــــــؤادي،

فهــــذي الســــماءْ　　　بــــــأوج العــــــلاءْ

لروحــــي تنــــــادي،

وهـــــذا خليلــــــي

يضيـــــــئُ ســــــناه ضيــــــاءَ الســــــماءْ

يـنـيــر سـبـيـلــي

ثم سكت فـإذا أنـا أسـمعه يقـول : هـذا مـا كنـتُ أطلب. أتذكر يا أبا المدائن يـوم وقفْـتُ عليـك بدكـانك أشـتـري عنك شيئاً فجاءني من أخبرني بمريـم وُلِـدتْ؟.. - يعني واحدته وقد ماتت صغيرة - ولم يكد يتمّ كلامـه حتى حثّ فرسه وأرسـله كـالريح، فأسـمعُ حوافـره علـى الصخور كالرعد. وغاب عني في الليل. فلم تمض هنيهـة حتى سمعْتُ صخوراً هاوية وصهيلَ أَلَمٍ وصيحة كصيحـة الفرح تملأُ الوادي واقشعرّ لها جلدي، فكأنَّ الأمرَ مأدبـةُ شياطين. ثم سكن كل شيء ونـاديتُ فلـم يجبنـي أحـد. فلزمتُ مكاني إلى الصباح. فلما أصبحْـتُ نظرت فإذا أنـا على قمة جبل يكاد يبلـغ السـماء، وإذا دم علـى الصخـر، وإذا تحتي هاويةٌ يقصر عنها مدى العين.

رحم الله أبا هريرة. لقد كان أعظم من الحيـاة.

الفهرس

من إصدارات سلسلة «عيون المعاصرة»

صلاح الدين بوجاه

لون الروح

تقديم : العادل خضر

بين المنتجع مكان المراقبة والقلعة مكان المعاقبة تدور أحداث بحث مرهق عن «لون الروح» في انتظار هجوم إرهابي متوقع.

192/2008 صفحة/8,200 د.ت

عبد الجبار العش

محاكمة كلب

تقديم : محمد القاضي

يوم المحاكمة يصرخ «عرّوب الفالت» بأنّه من فصيلة الكلاب عاش مثلها ويريد أن يموت ميتتها أن يكرم بالموت لا أن يعاقب بالحياة.

176/2007 صفحة/7,200 د.ت

كمال الرياحي

المشرط

تقديم : صلاح الدين بوجاه

ابن خلدون يقتلع قدميه من قاعدة الرصاص، يدخّن سيجارة ويروي ذكرى رحيله لبلد «المخاخ» طائر نتن يمتصّ العقول ويعاشر النساء تاركا في أرحامهن لعنة.

180/2006 صفحة/5,400 د.ت

منير الرقي

خدعة العصر

تقديم : نور الدين العلوي

تنفتح الرواية بصرخة وتنغلق بأخرى وبين الصرختين أمل في موت عزيز لا يسعف جسدا بلا هوية مثقلا بذكرى قتله لقريبيه.

206/2008 صفحة/8,200 د.ت

إبراهيم الكوني

من أساطير الصحراء

تقديم : توفيق بكار

عمر الصحراء طويل وكم فيها من الأساطير، حكاية عابر أضاع السبيل، ومن حوله علامات من «سلطان الضياء» تنير فتدلّ، ومن «سلطان الظلمات» مغريات تستهوي فتضلّ.

304/2006 صفحة/7,800 د.ت

صبري موسى

فساد الأمكنة

تقديم : صلاح الدين بوجاه

صحراء لا يمهلها الموت تلذّذ الحياة ويحوّل عمارها إلى خلاء، لم يبق فيها سوى «نيكولا» رجل حلم بموطن فلم يحظ إلا بقبر وارى بين صخوره جسد «إيليا» البنت والصديقة.

220/2006 صفحة/7,400 د.ت

زهير بن حمد

تاج العمود

تقديم : خالد الغريبي

قلب يبحث عن الحقيقة الحلم عن «ترشيش» عن حضن إمرأة يفوح منه عبق الهويّة فتتداخل الأزمنة و تتلاشى الحدود فلا تدرك إن كنت تطالع لزائر من الماضي أو لكاتب من الحاضر.

156/2006 صفحة/5,200 د.ت

أمال النخيلي

ترانيم البردي القديم

مثل حكايات ألف ليلة وليلة يأتي النصّ مراوحاً بين الحبّ والكره والصراع من أجل البقاء، من قرية ساحليّة تأخذك أحداث الرواية في رحلة الكشف عن سرّ ابتلعه البحر فأضحى جزءاً منه.

192/2005 صفحة/4,800 د.ت

عروسيّة النالوتي

مراتيج

صور غائمة، ألم يطرق الرأس، ومرارة في الحلق وكل ما حول «المختار» مبعثر، هو لا يعي أي حدود بين الوهم والحقيقة، لكنّه يدرك أن شيئاً ما يناديه يدفعه للاعتراف بهزيمته أمام حب «دوجة».

112/2005 صفحة/3,900 د.ت

نورالدين العلوي

المستلبس

أحمد العروس واحد منّا يبحث عن السبيل إلى السعادة، لكن الدنيا تأبى عليه أن يسكن «بيت الصابون» في سطح العمارة حيث يختنق الحلم وتنتحر السعادة.

156/2005 صفحة/5,900 د.ت

صلاح الدين بوجاه

سبع صبايا

تقديم : محمد الغزي

غاب الرجال سافروا بعيدا، والصبايا يبكين، والنساء تعوّضن المفقودين بالغناء والرقص والزينة الكئيبة. الصبايا ملح الأرض فإذا فسد الملح... ؟

126/2005 صفحة/4,800 د.ت

مصطفى الفيلالي

مانعة

تقديم : توفيق بكار

قرية عالقة بسفح جبل لا توشي بما خلف جدرانها، حياة بسيطة اختـُزلت في وجوه ستة رجال هم خلاصة روح «مانعة» وعقلها وجهادها.

280/2004 صفحة/7,400 د.ت

صلاح الدين بوجاه

النخاس

تقديم : المنصف الوهايبي

تاج الدين فرحات أضحى سرّاق صور ومشاهد وأحاسيس أضحى نخّاسا جمّاع عبيد وإماء وصور وأشياء صغرى كثيرة لا يعرفها، رجل تسكنه حكايات لا أوّل لها ولا آخر.

168/2003 صفحة/6,000 د.ت

محمود المسعدي

من أيام عمران

تقديم : توفيق بكار

«دانية» و«عمران» أيّامهما لوعة هوى وعذاب تسأل، يبحثان عن حقيقة الموت والحياة، عن الكون حين يرتدّ إلى العدم، عن الطريق التي لا نهاية لها.

7,500/160/2002 د.ت

البشير خريف

برق الليل

تقديم : فوزي الزمرلي

أيّام غزو الإسبان لمدينة تونس، عبدٌ أسود محمّل بأوزار عشق مستحيل لحسناء حرّة يجوب الشوارع بحثاً عن أمل في غد دون قيود.

152/2000 صفحة/4,800 د.ت

محمد الباسطي

صخب البحيرة

تقديم : توفيق بكار

بحيرة تختزن أسرارها، تطوّق جسدا انطوى على أحزانه وخبّأ بين ثنايا نفسه شوقاً لرجل هجر المكان ذات ليلة، تأتي النوة وتذهب وتطفو الأجساد الميتة على سطح البحر لكن ذاك الرجل لا يعود.

140/1999 صفحة/7,800 د.ت

عروسية النالوتي

تماس

تقديم : يوسف الصديق

زينب عبد الجبار ابنة تشتاق لحضن أب لم تعرفه أبداً، يتنازع بداخلها شعور موجع يذكّرها بفقدها لأمّها فيستحيل الشوق كرهاً.

128/1995صفحة/4,700 د.ت

حسن نصر

دار الباشا

تقديم : محمد القاضي

يقود الزمن «مرتضى» ليواجه ماضيه باحثا عن طفولة مقهورة لم ينجح في التخلّص منها. على وقع أقدامه داخل دار الباشا تتتالى الذكريات ليجد نفسه سجينا في ركن تحت الأنقاض يحلم بالرحيل لمدينة الضياء.

194/1994صفحة/6,400 د.ت

محمود المسعدي

السد

تقديم : توفيق بكار

بين إرادة الإنسان ومشيئة الربّة يقوم السد وينهدّ، والغلبة للأقدار. «صاهباء» و«غيلان» ضدّان لا يجتمعان، يختزلان صراعا أبديّا بين عظمة الطبيعة وقوّة الإنسان.

176/1992 صفحة/6,400 د.ت

جمال الغيطاني

الزيني بركات

تقديم : فيصل دراج

اندماج بين الأدب والتاريخ، صورة شاملة لسلطة تدمّر البشر وتحوّل المجتمع إلى عدوّ، هي اختزال لمعنى القمع، وهزيمة من الماضي تتجسّد في الحاضر.

324/1991 صفحة/7,800 د.ت

البشير خريف

الدقلة في عراجينها

تقديم : الطيب صالح

«...هذه الرواية ترتفع أحياناً إلى قمم عليا في الفن التراجيدي. ذلك أن للكاتب قدرة «شكسبيرية» على أن يقدّم الهزل بين يدي الجدّ...» الطيب صالح

352/1990 صفحة/ 8,900 د.ت

صنع الله إبراهيم

اللجنة

تقديم : حسن الصادق الأسود

هل من المجازفة أن يجعل المؤلف من «الكوكا كولا» موضوعاً لروايته، وأيضاً الموضوع الذي اختاره البطل ليعرضه أمام «اللجنة» فتقرّر إثره معاقبته ذلك العقاب ؟

152/1989 صفحة/4,800 د.ت

محمد المويلحي
حديث عيسى بن هشام
تقديم : محمود طرشونة

رجلان من زمنين مختلفين جمعتهما الصدفة فأضحيا صديقين تعايشا معا رغم الاختلاف فتقاسما سفرا بين المجالس والمدن والمحاكم بحثاً عن نقطة التقاء بين الحضارات.

1985/352 صفحة/8,900 د.ت

عبد الرحمان منيف
شرق المتوسط
تقديم : حسين الواد

بلد لا يتنفس ساكنوه سوى القمع والتعسف، من وراء جدران السجون تسمع صرخات، وفي الشوارع سلطة ترصد الكلمات، و دموع أمهات لم تشفع لأبناء آمنوا بالحرية.

1982/224 صفحة/6,900 د.ت

حنا مينا
الياطر
تقديم : الرشيد الغزي

بين الغابة والبحر انعزل عن المجتمع لكنه لم يتوقف يوما عن التفكير، فهو «ياطر» مشدود لنسغ الحياة فضّل المواجهة على النسيان، فاندفع عائداً نحو مدينته تاركاً خوفه و«شكيبة»..

1982/160 صفحة/6,900 د.ت

إميل حبيبي
المتشائل
تقديم : توفيق بكار

بين المأساة والملهاة والغصّة والضحكة يورد علينا المؤلّف قصّة «العرب الباقية» في فلسطين المحتلّة وهي «أعجب عجيبة وقعت من عصا موسى وقيامة عيسى»

1981/184 صفحة/5,500 د.ت

الطيب صالح
موسم الهجرة إلى الشمال
تقديم : توفيق بكار

جنوبي يحنّ إلى الشمال فتختلط أشواقه الإنسانية بأحقاده التاريخية فأقبل على نسائهن يردّ العنف بالعنف والوصل بالهجر وبعد أن كان جانياً أضحى ضحية تلقي بنفسها في النهر أملا في الخلاص.

1980/160 صفحة/5,900 د.ت

محمود المسعدي
حدث أبو هريرة قال...
تقديم : توفيق بكار

شخص امتزج فيه الصوفي بالمغامر يبحث في جذور الأشياء لا يحب السكون بقدر ما يستهويه الترحال. رائعة محمود المسعدي بلا منازع.

1979/204 صفحة/6,900 د.ت

تم طبع هذا الكتاب
بمعامل فنزي للطباعة
دفتر الاشغال عدد 1132
سبتمبر 2014

أبو هريرة خطر عل اطمئنانك.

يستنطقك - بلا رحمة - عن معناك بما يسلّطه عليه من أسئلة قاسية تمسّ بأصول الحياة : الولادة والموت والدين والسياسة والحبّ، فيرغمك مهما كان اعتقادك على معاودة فهمك لوجودك والتثبّت في صحّة علائقك بنفسك وبالمجتمع وبالله وبالكون. وليس همّه أن يقنعك برؤيته بل أن يردّك إلى نفسك عسى أن تطّلع واعياً بمصيرك فتكون إنساناً.

من أقوى نصوص أدبنا المعاصر، تجربة فريدة في الكتابة.

محمود المسعدي

من كبار الأدباء العرب في العصر الحديث ورأس مدرسة فريدة في الكتابة. وُلد بتازركة في 28 جانفي 1911 وتوفّي في 16 ديسمبر 2004. من خريّجي المدرسة الصادقية وجامعة الصربون. مبرّز في اللغة والآداب العربية. أشرف فيما بين 1943 و1947 على مجلّة «المباحث».
تقلّد مسؤوليات عدّة في الميدانين الوطني والنقابي. تولّى بعد الاستقلال وزارة التربية الوطنيّة ثم وزارة الثقافة بتونس.
أشهر مؤلّفاته :
- السدّ
- مولد النسيان



الثمن : 7.500 د.ت
ISSN : 0330-5627
ISBN : 978-9973-703-98-9
9 789973 703989